مشاهد
من مدرسة
بقلم د. بديع القشاعلة

هذه المشاهد حقيقية.. ذكريات من مدارس

سنوات الثمانينات والتسعينات

في المدارس العربية في النقب

مشاهد من مدرسة

د. بديع القشاعلة

نشر وتوزيع مركز السيكولوجي
للنشر والتوزيع الالكتروني
النقب – 2024

Alk.badeea@gmail.com

00972509316282

فهرست

مشهد المتأخر 9

مشهد المحبَط 12

مشهد المتَرَدِد 14

مشهد الابتسامة 16

مشهد المدير 18

مشهد جدول الضرب 21

مشهد الاحراج 23

مشهد معلم التاريخ 26

مشهد الصدمة 29

مشهد الورقة المطوية 31

مشهد الهدايا 34

مشهد معلمة الرسم 36

مشهد غياب المعلم 39

مشهد علبة السجائر 42

مشهد العريف 45

مشهد السؤال 47

مشهد الصفعة 50

مشهد اجنحة الطفولة 54

مشهد الوظيفة البيتية 62

مشهد الاصغاء 66

مشهد العقاب الصباحي 68

مشهد "سالم" 70

مقدمة

الطفولة في المجتمع العربي النقباوي في تلك الفترة (الثمانينات والتسعينات)، كانت بعيدة كل البعد عن الصورة المثالية للطفولة الخالية من الهموم، كما قد تبدو في أماكن أخرى. بالنسبة للطلاب البدو في جنوب البلاد، كانت رحلة الوصول إلى المدرسة، الجلوس في الصف، والتعامل مع النظام التعليمي جزءًا من صراع يومي مستمر. كانت مؤسسات التعليم، التي تطورت ببطء، تمثل نقطة التقاء بين عوالم متناقضة: بين التقاليد البدوية وبين الواقع التعليمي الحديث, بين الثقافة الصحراوية التي حافظت على أساليب حياة قديمة وبين متطلبات التعلم التي فرضها عالم أكثر تقدمًا وكثافة.

بالنسبة للعديد من الأطفال، كانت الطريق إلى المدرسة مغامرة بحد ذاتها. البعض منهم كان يسير لعدة كيلومترات سيرًا على الأقدام، في طرق وعرة، أحيانًا في ظروف جوية قاسية، حاملين معهم بضع كتب، وأحيانًا طعامًا بسيطًا أعده الوالدان مسبقًا. كانت هذه رحلة يومية عبر التلال والوديان، حيث يلتقي الأطفال ببعضهم، يروون القصص، ويقضون الوقت والمحادثات الخفيفة حتى يصلوا إلى المدرسة.

لم تكن المدارس البدوية في الثمانينيات والتسعينيات مجرد مكان للتعلم والإثراء، بل كانت أحيانًا ساحة للألم والخوف بالنسبة لبعض الطلاب.

في نظام التعليم في تلك الفترة، كانت المفاهيم التربوية والأفكار التعليمية بعيدة كل البعد عن النهج اللين والشامل الذي يُحاول تبنيه اليوم. كان العقاب البدني جزءًا لا يتجزأ من ثقافة المدرسة، والكثير من الأطفال عانوا منه على أجسادهم، ليس كآلية تربوية، بل كصدمة تركت أثرًا عميقًا في ذاكرتهم.

المعلمون، قليل منهم كانوا من رجال التعليم من المجتمع المحلي والأغلب من الخارج، كانوا يعتقدون أن فرض الانضباط بالقوة أمر ضروري. في تلك الفترة، قبل العديد من الآباء هذا كضرورة تربوية، معتقدين أن الأطفال يجب أن "يتعلموا من خلال الخوف". كانت السلطة والصرامة تُعتبر رموزًا للاحترام، ولم يكن هناك الكثير من التساؤل حول تناسب العقوبات أو تأثيرها النفسي على الطلاب.

هذا الكتاب مُهدى من القلب لكل هؤلاء الطلاب الشجعان، الذين عانوا من صعوبات، وألم، وخوف في النظام التعليمي خلال الثمانينيات والتسعينيات. إلى جميع هؤلاء الأطفال الصغار الذين جاءوا إلى المدرسة برغبة في التعلم، الاستكشاف، والتطور، لكنهم واجهوا أحيانًا قسوة غير مفهومة وتجارب تركت أثرًا عميقًا في نفوسهم.

المؤلف

مشهد "المتأخر"

في صباحٍ رمادي بارد، كانت الشوارع تلمع برذاذ المطر الذي لم ينقطع طيلة الليل. كان سامي يهرول بخطواتٍ مضطربة على الطريق الترابي المؤدي إلى مدرسته، يحمل على كتفيه ثقل الوقت الذي يمضي أسرع مما يجب. عيناه شاخصتان، وأفكاره تائهة بين قلقه على والده المريض، وأعباء الصباح التي ألقاها القدر على عاتقه الصغير. تأخره كان حتمياً، ليس لأنه متكاسل، ولكن لأن الحياة أحياناً تُلقي على عاتق الصغار أحمالاً لا يتحملها الكبار.

وصل سامي إلى بوابة المدرسة، يلهث بأنفاسٍ متقطعة وكأنه قطع مسافة أطول من عمره. توقّف للحظة، يحاول أن يستعيد أنفاسه المتناثرة، ثم اندفع مسرعًا نحو الصف كمن يطارد سراب الوقت الضائع. لكن قبل أن يلمس مقبض الباب، اخترق أذنيه صوتٌ خشن قادم من نهاية الممر. تجمّد في مكانه، كأن الكلمات كانت حبلاً شدّه للخلف:

- "سامي! تعال هنا".

كان المدير رجلاً ذا وجهٍ جامد كالصخر، لا يتبدل ولا يلين، حتى مع براءة الأطفال. قسوته كانت معروفة للجميع، يطبق قوانينه بحزم كأنه قاضٍ في محكمة لا تستمع إلا للائحة الاتهام.

سار "سامي" بخطوات ثقيلة ومرتجفة نحو المدير، وقلبه ينبض بقوة. وقف أمام المدير كان ينظر إليه بعينيه الباردتين.

- "متأخر! ، كما تفعل دائماً. هذه المرة الخامسة هذا الشهر. ماذا لديك لتقول؟" سأله المدير بنبرة حادة وعينين جاحظتين.

ابتلع "سامي" ريقه مرتين وقال بصوت خافت يخرج من بطنه:

- "أستاذ، كنت أساعد أبي في المنزل. إنه مريض ولا يوجد من يساعده غيري."

لم يبدُ على المدير أي تعاطف. امسكه من قميصه بغضب:

- " أنت تعرف القواعد! لا مكان للأعذار هنا."

وتقدم نحو "سامي" وفي يده عصا خشبية رفعها وضربه على كتفه بقوة، ضربة مؤلمة جعلت عيني "سامي" تدمعان، لكنه حاول أن يتحمل الألم بصمت.

لم يكن الألم فقط في كتفه، بل كان الألم الأكبر في قلبه. كان يعرف أن ما يفعله من أجل والده ليس خطأ، لكنه لا يستطيع أن يشرح ذلك للمدير.

بعد أن انتهى المدير من عقابه، قال بنبرة صارمة:

- "الآن عد إلى الصف. ولا تتأخر مرة أخرى!"

ذهب "سامي" الى الفصل ويداه ترتعشان. دخل الفصل وجلس في مقعده، ولكن عقله كان في مكان آخر.

لم يكن يفكر في الدرس أو المدرسة. كان يتساءل لماذا لا يفهم الكبار أنه يحاول فقط أن يقوم بما هو صحيح.

مشهد "المحبَط"

كان معلم الطبيعة، رجلاً بسيطًا ومحبًا لمهنته. ورغم حبه للتعليم، كانت هموم الحياة وضغوطها تثقل عليه، فالفقر والعيش المتواضع في قريته جعلاه يغلي من الداخل أحيانًا.

في صباح أحد الأيام الصيفية الحارة، دخل المعلم إلى الصف متعبًا ومتجهمًا. جلس الطلاب في أماكنهم، يحبسون أنفاسهم. كان اليوم موعد تسليم الواجبات المنزلية، وكان الجميع يعرفون كيف يكون مزاج الأستاذ عندما لا يجد الدفاتر مكتملة.

فسأل المعلم بصوت خافت، لكنه يحمل نبرة تهديد:

- "من لم يُحضِر وظيفته اليوم؟"

رفع طارق، ذلك الطالب الهادئ الذي يجلس في الزاوية، يده بتردد. كان طارق معروفًا بأنه طالب مجتهد، ولكن هذا اليوم كان مختلفًا. قال بخجل:

- "لم أتمكن من إنهاء الوظيفة، أستاذ".

نظر المعلم إلى طارق بغضب متصاعد، وكأن طارق قد ارتكب جرمًا لا يغتفر. كان الضغط يتراكم في داخله: قلة المال، المشاكل العائلية،

الإحباطات المتراكمة في حياته. لم يكن طارق هو السبب، لكنه كان الهدف المتاح. فجأة، انفجر الغضب في قلب المعلم.

نهض المعلم من مكانه، وتقدم نحو طارق بخطوات ثقيلة. أمسكه من اذنه، وضربه على رأسه بيده المفتوحة. ضربة واحدة، لكنها كانت كافية لتسكت كل الأصوات في الصف. جلس طارق مكانه في صمت مطبق يخيم على المكان.

وجلس المعلم على كرسيه، ووضع يده على رأسه، بينما كان طارق لا يزال صامتاً، من هول المفاجأة.

في تلك اللحظة، شعر المعلم بثقل الجريمة التي ارتكبها.

لم يكن واجب طارق المنزلي هو المشكلة، بل كل ما كان يختمر في داخله من ضغوط الحياة.

مشهد "المتَرَدِد"

جلس "حسن" في المقعد الأخير، وكأنه اختار زاوية منسية يراقب منها المشهد عن بعد. كان الفصل يُعرف: "الثالث – ج -", رمزٌ قد يبدو عادياً، لكنه كان عالماً بحد ذاته. عيناه تتنقلان بخفة بين اللوح وأوجه زملائه، يلتقط تفاصيل صغيرة ربما غابت عن الآخرين. في المقدمة، كان الجو مليئًا بتلك الحماسة المتقدة، حماسة تشبه شرارة نار في ليلة شتوية باردة. الطلاب الأذكياء يتدافعون بأفكارهم وأسئلتهم، يتسابقون لجذب انتباه المعلم، كأنهم في سباقٍ خفي، كلٌ يحاول إثبات تفوقه، وإثارة إعجاب ذلك الصوت الذي يحمل في كل كلمة فرصة للتقدير والاهتمام. أما "حسن"، فكان كعادته يراقب بهدوء، يترقب اللحظة التي ربما، ولو لمرة، يقتحم فيها هذا السباق الصاخب.

"حسن"، على الرغم من جهوده المتكررة، لم يتمكن يومًا من أن يحظى بنفس الاهتمام.

المعلم، بوجهه الجاد ونظراته الحادة، كان يوجه أسئلته دومًا نحو الطلاب الذين يرفعون أصابعهم بثقة. كان يتحدث إليهم بحماسة، ويثني على إجاباتهم الصائبة، بينما "حسن"، رغم معرفته أحيانًا بالإجابة، كان يجلس

صامتًا. كان قلبه ينبض بقوة عندما يعرف الجواب، لكنه لم يجرؤ يومًا على رفع إصبعه.

في ذلك اليوم، سأل المعلم سؤالًا بسيطًا:

- "ما هو حاصل ضرب ثلاثة في خمسة؟".

"حسن"، عرف الإجابة فورًا. لكنه تردد. فكرة رفع إصبعه بدت وكأنها مغامرة محفوفة بالمخاطر.

"ماذا لو أخطأت؟" ترددت الأفكار في رأسه.

"ماذا لو ضحك المعلم؟ ماذا لو سخر مني زملائي؟" كانت تلك الأسئلة تلتهم شجاعته. في اللحظة التي فكر فيها "حسن" بأن يرفع إصبعه، سبقه أحد الطلاب الأذكياء وأجاب بصوت عالٍ:

- "خمسة عشر!".

كانت الإجابة صحيحة، وصفق الجميع بحرارة. نظر المعلم بفخر إلى التلميذ، وابتسم. أما "حسن"، فقد انكمش في مقعده، يائسًا ومختبئًا خلف حاجز خوفه. ظل "حسن" صامتًا، وتلاشت الفرصة في الهواء كما تتلاشى ورقة شجر في مهب الريح.

مشهد "الابتسامة"

كان ذلك عندما كنت في الصف الخامس الابتدائي، أعيش في حيّ بسيط، حيث تعج الشوارع بأصوات الأطفال وضحكاتهم المتناثرة. في وسط حارتنا، كان هناك شارع صغير، غير مميز في عيون الآخرين، لكنه كان عالمي الصغير، مملكتي الخاصة التي تعني لي الكثير.

كنت ألعب فيه كل يوم تقريباً، أعدو بقدمين صغيرتين تحملان همّ البراءة والحلم. وفي هذا الشارع الضيق، كان هناك شخص يمرّ كل يوم، هو معلم الدين في مدرستنا. كنت أراه قادمًا من بعيد، بهيئته الوقورة وثيابه التي كانت تعكس نور الشمس. خطواته كانت هادئة، متزنة، كأنه يحمل في جعبته سلامًا للعالم بأسره.

لم يكن مروره عابرًا، كان يمرّ بنظرة وابتسامة، كانت عيناه تحملان لطفًا واهتمامًا لا يخفى، وكأنني الوحيد الذي يرى تلك النظرات. كلما اقترب، كنت أشعر بنبضات قلبي تتسارع، وأرفع رأسي بانتظار كلماته المعتادة: "السلام عليكم". كانت تلك العبارة تتردد في أذني كأنها لحن مألوف، يختلط بهواء الحيّ ليملأ صدري بفرح بسيط وعميق.

لم أكن أعرف حينها أن تلك اللحظات البسيطة ستبقى عالقة في ذاكرتي إلى الأبد، كنقشٍ على حجر. شعرتُ بأنني مميز، وكأنني مرئي، ليس فقط كطالب في فصل مكتظ، بل كإنسان يستحق التحية والابتسامة.

كانت تلك التحية البسيطة هي الجسر الذي ينتشلني من شعور الوحدة، من أي إحساس بالهامشية. في كل يوم كنت أنتظر مروره، وكأنني أنتظر حضور صديق، أو نبض حياة يهمس لي: "أنت هنا، أنت تستحق الاهتمام".

مشهد "المدير"

كانت الغرفة واسعة، مزينة بأثاث فاخر، جدرانها مكسوة بخشب داكن يضفي عليها شعورًا بالهيبة والرفاهية. المكتب المصنوع من خشب الجميل البراق كان يحتل منتصف الغرفة، تعلوه مجموعة من الكتب المنظمة بدقة وساعة كبيرة لامعة. شعرت بأنني في حضرة رجل ذو مقام رفيع.

جلس المدير خلف مكتبه، بابتسامة هادئة على وجهه. كان حديثه ينساب بسهولة، يفيض بالحكمة والطلاقة. تحدث عن التربية، عن دور المدرسة في تشكيل العقول الشابة وتغيير المجتمع، وعن القيم التي يجب أن تتحلى بها الأجيال القادمة.

كان كلامه مليئاً بالمعاني الكبيرة والفخمة، كانت نبرة صوته ثابتة، ونظرته واثقة. شعرت وكأنه يجسد جميع ما كنت أتخيل أن يكون عليه مدير المدرسة المثالي. كلمات مثل "الاحترام"، "التفاني"، و"التربية الصحيحة" كانت تخرج من فمه كأنها ألحان جميلة. في داخلي كنت أقول:

- "نعم، هذا هو النموذج الذي يجب أن يقتدي به كل معلم ومدير."

بعد أن انتهى اللقاء، وقفت وأنا أشعر بفرحة داخلية، فخورٌ بأنه لدينا مدير مثل هذا المدير، وشخص بهذه القيم. شكرته بابتسامة عريضة، وغادرت الغرفة وكأنني أحمل في صدري شعورًا بالنجاح والرضا.

سرت في الممر الطويل للمدرسة، كانت الجدران المليئة بالصور والإنجازات تحيط بي من كل جانب. كان الجو هادئًا. وعندما وصلت إلى نهاية الرواق، وأنا على وشك الخروج، فجأة سمعت صوتًا مخيفا يخترق الصمت. صوت كان أشبه بالرعد في فصل الشتاء.

كان الصوت قادمًا من غرفة المدير نفسها التي كنت فيها للتو. كان المدير نفسه، الذي كان قبل دقائق يتحدث عن التربية والاحترام. كان يصرخ بشدة، وصوته يرتفع في كل أرجاء المدرسة. توقفت في مكاني، وقلبي بدأ ينبض بسرعة. اقتربت من الصوت ببطء، وكلماته كانت تزداد وضوحًا. كان يصرخ على أحد الطلاب، صوته مليء بالغضب الشديد. "كيف تجرؤ؟! يا حشرة!"، صرخ المدير بأفظع الألفاظ، وتوالت الشتائم والسباب بشكل لا يمكن تصديقه.

كانت كلماته تخترق الهواء وتتحطم على أذنيّ، تلك الكلمات القاسية تصدر من شخص كنت قد اعتبرته رمزًا للقيم التي تحدث عنها.

وقفت في مكاني، متسمرًا، لا أستطيع التحرك. لم يكن الأمر مجرد صراخ، بل كان انهيارًا للقناع الذي كان يرتديه المدير، ذلك القناع الذي يخفي وراءه وجهًا قاسيًا.

شعرت بخيبة أمل عميقة، وكأن شيئًا بداخلي قد انكسر.

مشهد "جدول الضرب"

كان يحتفظ دائمًا بعصا طويلة ورفيعة في حقيبته الجلدية، وكأنها سلاحه الذي يستخدمه للحفاظ على النظام والترهيب. لم يكن أحد يجرؤ على النظر في عينيه عندما كان يتجول في الفصل، لأننا كنا نعرف تمامًا ما ينتظر من يخالف قواعده.

في ذلك العام، كنت في الرابع ابتدائي. أتذكر جيدًا اليوم الذي أعلن فيه معلم الحساب عن المهمة الجديدة:

- "حفظ جدول الضرب كاملًا".

كان صوته غليظاً وجادًا عندما قال:

- "من لا يحفظ الجدول، سيواجه مصيرا صعباً!"

ولم يكن علينا أن نسأل عن نوع هذه العواقب، لأننا جميعًا كنا نعرف العصا المخيفة التي كان يحتفظ بها. كان يلوح بها بين الحين والآخر.

"يا ويلي!" قلت لنفسي في ذلك اليوم. كيف سأحفظ كل هذا؟

جلست في البيت يومين كاملين، أحاول مرارًا وتكرارًا حفظ الجدول. كنت أكرره بصوت خافت، أحيانًا أقوله بصوت عالٍ، وأحيانًا أتخيل نفسي في الفصل أمام المعلم، أردد الجدول وأرى العصا تتأرجح في خيالي.

كان الخوف منها هو الدافع الأساسي لي، أكثر من رغبتي في النجاح أو التعلم. ثم جاء اليوم المشؤوم، يوم الحساب. دخل المعلم الفصل بخطوات ثقيلة، وكأن الأرض تهتز تحت قدميه. كان وجهه متجهمًا وعيناه تلمعان بحدة. لم يقل شيئًا في البداية، بل فتح حقيبته ببطء شديد، وأخرج العصا وكأنه مستمتع بذلك. كان مشهدها وحده يكفي لجعل الصف يغرق في صمت تام.

بدأ المعلم ينادي على الأسماء واحدًا تلو الآخر.

كان كل طالب يقف أمامه، يحاول تلاوة جدول الضرب بصوت مهتز. البعض نجح، والبعض الآخر تعثر في منتصف الطريق. كل من أخطأ، كان يتلقى الضربة القاسية على يده بالعصا. كانت الضربة سريعة، لكن الألم كان يتردد في الهواء، مخيفاً ومؤلمًا. كلما سمعت صوت الضربات، ازداد الخوف داخلي.

وعندما جاء دوري، شعرت أن قلبي يكاد يقفز من صدري. تقدمت ببطء، قدماي بالكاد تحملاني. حاولت جاهداً أن أستجمع كل ما حفظته في اليومين السابقين، لكن الخوف كان أقوى من الكلمات.

مشهد "الاحراج"

معلم اللغة الإنجليزية كان رجلاً صغير الجثة، نحيلًا، وكانت هيئته توحي باللطف والهدوء. على النقيض منه، كان الطالب "تيسير" الذي يقف أمامه عنيفًا، شرسًا وعنيدًا، يتصدر دائمًا أي مواجهة، سواء كان مع زملائه أو حتى مع المعلمين. لكن هذه المرة، كانت المواجهة مختلفة، لأن الأمر يتعلق بشتم طالبة من الفصل.

وقف معلم الإنجليزية الصغير أمام الطالب، علم جيدًا أنه في ورطة. كانت عينيه تتحركان بسرعة وكأنه يبحث عن مخرج في هذه المواجهة التي لم يكن يريدها أبدًا. لكنه، مع ذلك، حاول أن يتمسك بسلطته كمعلم وقال بصوت هادئ لكنه مليء بالتوتر:

- "تيسير! عليك أن تعتذر من البنت."

لكن "تيسير"، وكعادته، رفض بقوة وبشراسة. قال بصوت حاد وواثق:

- "لن أعتذر."

كان الرفض يأتي بشدة وصلافة، وكأن "تيسير" يستمتع بهذا التحدي. في تلك اللحظة، ارتبك المعلم بشكل واضح، ورأينا جميعًا في الفصل كيف أنه بدأ يفكر كيف سيخرج من هذه الورطة التي وقع فيها.

حاول المعلم التمسك بموقفه، وكرر ولكن هذه المرة كان في صوته بحة:

- "عليك أن تعتذر، وإلا سأعاقبك."

لكن الطالب لم يتحرك قيد أنملة. كان عنيدًا، وكلما أصر المعلم، كان الطالب يزداد تمسكًا بموقفه. كان الجو في الصف مشحونًا، ولم يكن أحد منا يجرؤ على الحركة. الجميع كانوا يترقبون، يعلمون أن المعلم في موقف صعب جدًا.

ثم جاء ما لم يكن متوقعًا. بدأ المعلم بحركة غريبة، أولاً، خلع خاتمه ووضعه بهدوء على الطاولة. كانت تلك الحركة وكأنها إشارة "لتيسير"، وكأن المعلم يعطيه فرصة للتراجع بهدوء. ثم، بعد لحظات قليلة، خلع المعلم ساعته أيضًا ووضعها بجانب الخاتم. بدا الأمر وكأن المعلم يحاول بطريقة ما إظهار استعداده لمواجهة، ولكنه في الحقيقة كان خائفًا من التورط في أي تصعيد.

كل هذا الوقت، كانت أفكار مزعجة تدور في عقل المعلم. الورطة كانت واضحة عليه، وكانت كل حركة منه تعكس حيرته وصراعه الداخلي. كان يحاول أن يجد حلاً يحفظ به ماء وجهه كمعلم دون أن ينحدر إلى مواجهة جسدية مع الطالب.

وفي النهاية، وبعد صراع طويل مع أفكاره، وجد المعلم مخرجًا غير متوقع. استجمع شجاعته وبدأ في التقدم نحو "تيسير" بخطوة مفاجئة، وكأنه على

وشك مهاجمته. لكن كانت تلك الحركة محسوبة بذكاء، فقد أتاح "لتيسير" فرصة للهروب من الموقف دون فقدان كبريائه.

لم يكن المعلم يريد فعلاً أن يصطدم بالطالب، ولكنه أراد فقط أن يظهر وكأنه "هجم" عليه ليعطيه منفذًا للتراجع.

وبالفعل، انتهى المشهد، الطالب هرب، بينما المعلم نجا من مواجهة مباشرة كانت ستترك آثارًا سيئة على هيبته.

كانت لحظة مليئة بالتوتر.

مشهد "معلم التاريخ"

كان معلم التاريخ ضخم الجثة، عريض المنكبين، وطويل القامة لدرجة أن رأسه يكاد يلامس السقف. عرجه الخفيف كان يزيد من رهبته، حيث كانت كل خطوة منه تصدر صوتًا غريبًا، مختلطًا بثقل جسده، وكأن الأرض تستجيب لكل خطوة يخطوها. كنا في الخامس ابتدائي، صغارًا نحاول ألا نلفت الأنظار بأي حركة، وكنا نرتجف في أماكننا كلما اقترب منا.

عندما كان يدخل إلى الفصل، يسود الصمت. كل طالب كان يلتصق بمقعده، محاولًا أن يبدو غير مرئي. لا أحد يجرؤ على الحركة، وكأن الهواء نفسه يتوقف عن الدوران. بنظرة حادة، كان المعلم يتفحص الصف، وكأنه يبحث عن أي طالب يرتكب خطأً طفيفًا، حتى ولو كان مجرد رمشه عين غير ملائمة.

يجلس على كرسيه الضخم، الذي يبدو صغيرًا مقارنة بحجمه، ويضع كتاب التاريخ أمامه على الطاولة. كانت أصوات ورق الكتاب تبدو كأنها صدى ينبعث في أرجاء الصف.

كانت الطاولة تهتز قليلًا عندما يضع يديه الضخمتين عليها. يحدق فينا من خلف الكتاب، وكأن عينيه تخترق أرواحنا، ثم يبدأ بقراءة الدرس بصوته الغليظ:

- "كانت القبائل الجرمانية..."

هذا الدرس الذي أصبح أشبه بطقوس أسبوعية، لكننا لم نفهم يومًا من هي هذه القبائل الجرمانية ولماذا نتعلم عنها.

كل كلمة منه كانت تبدو كأنها أمر لا مجال للاعتراض عليه. لم يكن هناك مجال للسؤال أو النقاش، فقط الصمت.

كنا نجلس هناك، نحدق في الكتب أو في الفراغ، نحاول بقدر المستطاع ألا نثير أي انتباه. كل شيء كان يوحي بأن الصمت هو الخيار الوحيد.

حين ينتهي الدرس، كان يقوم فجأة وبقوة. صوت الكرسي وهو ينزلق على الأرض كان يحدث فوضى، يتردد صداه في جميع أركان الغرفة. كانت خطواته الثقيلة تقترب من الباب، وعرجه يجعل خطواته غير متوازنة، مما يزيد من رهبتها.

كنا نتحول في تلك اللحظات إلى أصغر حجم ممكن، نلتصق بمقاعدنا، نحاول أن نبدو أصغر وأقل لفتًا للانتباه، وكأننا نحاول الفرار دون أن نتحرك.

عندما كان يخرج من الفصل، كانت الفوضى التي يتركها وراءه (الصوت، الخوف، الضوضاء) تستمر لبضع لحظات بعد رحيله.

وبعدها، كنا نتنفس بعمق، وكأننا نجونا للتو من إعصار.

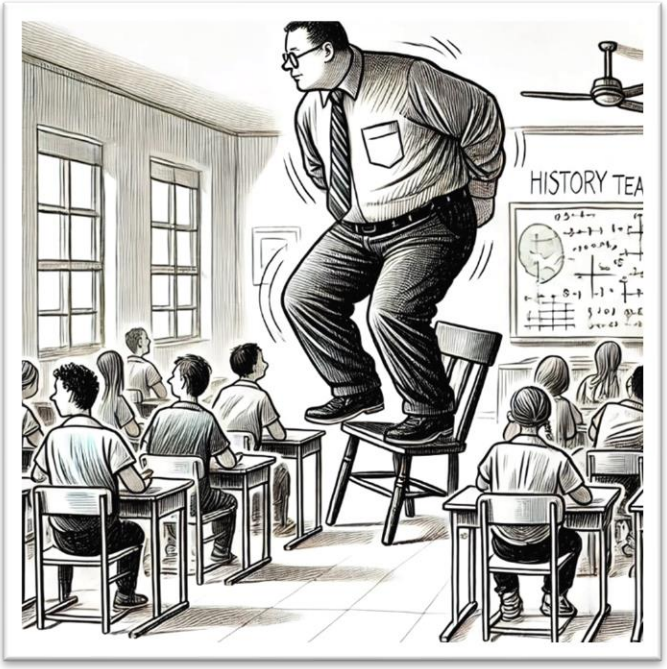

مشهد "الصدمة"

"زكريا"، الطالب الذي لم يكن يتحدث أبدًا.

كان يجلس بهدوء في مقعده، عيناه متابعتان لكل ما يحدث في الفصل، ولكن صوته كان غائبًا. لم نسمع منه كلمة واحدة طوال العام، فقط ابتسامة خفيفة ترتسم على وجهه من وقت لآخر. كانت ابتسامته غامضة، لا ندري هل تعبر عن رضا أو خجل أو ربما شيء آخر.

ذات يوم، حينما كان المعلم منهمكًا في شرح درس الطبيعة. كان الشرح متواصلًا، وكلنا كنا نتابع بصمت. الدرس كان مهمًا والمعلم كان يتحدث بحماسة، يشرح القوانين ويكتب الأمثلة بوضوح وكأنما يغرق في بحر من الشرح المتقن.

وفجأة، وبينما كان المعلم في أوج اندماجه، رفع "زكريا" إصبعه لأول مرة. كلنا في الصف تجمدنا في مكاننا. لم نكن نصدق ما نراه، "زكريا" الذي لم يتحدث أبدًا رفع إصبعه. بدا الأمر وكأنه حدث نادر ومميز، والمعلم بدوره شعر بموجة من السعادة الغامرة. كان وجهه يشع فرحًا، وبدا عليه فخر كبير. في داخله، فكر أن شرحه كان رائعًا لدرجة أنه حتى "زكريا"، الذي لم يشارك أبدًا، اندمج في الدرس لدرجة أنه يريد أن يستفهم عن شيء.

بابتسامة واسعة وصوت مليء بالثقة، قال المعلم:

- "تفضل يا "زكريا"، اسأل!"

بصوت خافت، قال "زكريا":

- "أريد أن أذهب إلى الحمام."

سكت الصف بأكمله.

كانت الصدمة تعم الوجوه، لكن أكثر من شعر بالصدمة كان المعلم. للحظة، بدا وكأن فرحته تحطمت على صخرة الواقع. كانت الكلمات التي خرجت من فم "زكريا" أبعد ما تكون عن التوقعات التي بناها المعلم في خياله.

انقلب وجه المعلم من السعادة إلى الغضب. احمرت اوداجه، وبدأ صوته يرتفع . وصرخ في وجه "زكريا"، ووجه له كلمات قاسية:

- "أهذا هو ما ترفع لأجله إصبعك؟! ألا تعلم أنني أشرح درسًا مهمًا؟! كيف تجرؤ؟!"

ثم انهال عليه بالشتائم، وكأن إحباطه استحال إلى غضب عارم لا يستطيع السيطرة عليه.

"زكريا"، بابتسامته الخفيفة التي كانت تزين وجهه، انكمش في مكانه، ولم ينطق بكلمة أخرى. عاد إلى صمته المعتاد، لكن هذه المرة، كان الصمت ثقيلاً.

مشهد "الورقة المطوية"

"سمير"، الطالب النحيل الذي كان يجلس في نهاية الفصل، لم يكن ينتظر توزيع الامتحانات بحماسة مثل باقي التلاميذ. كان يعرف ما سيحدث، وكان قد أعدّ ابتسامة متصنعة لتغطية ما ينتظره من خزي.

المعلم "تامر" ذاك الرجل المليء بالطاقة والحماس، دخل إلى الفصل وهو يحمل كومة من الأوراق كما لو كانت جوائز عظيمة. وقف أمام الطاولة، رفع يده عاليًا وقال بصوته المعتاد:

- "اليوم، يا أحبائي، سنوزع الامتحانات! بينكم المتميزون، بينكم المجتهدون، وبينكم... الكسلانين!"

كانت كلماته الأخيرة تُقال بحماس، وكأنه يستمتع بتقسيمنا كما يقسّم المزارع محصوله بين الجيد والرديء.

وبدأ ينادي:

- "أحمد! ممتاز، رائع!"،
- "سليم! ما شاء الله، متميز!"،
- "خديجة! ممتازة كالمعتاد!"،

كان الجميع يتلقون أوراقهم بابتسامات عريضة، وكلما زاد المعلم في توزيع الثناء، كان التوتر يزداد داخل "سمير".

كان "سمير" جالسًا، مبتسمًا ابتسامة صغيرة، ولكنها ابتسامة من النوع الذي يبدو وكأنها مُعلّقة على وجهه، تتأرجح بين الخوف والخجل.

وصل المعلم "تامر" أخيرًا إلى اللحظة المرتقبة.

- "سمير"!

قالها بطريقة مختلفة قليلاً، مما أثار فضول الجميع.

رفع المعلم "تامر" حاجبيه، وحدق في "سمير" لفترة أطول مما يلزم. كان هذا الصمت القصير أشبه بصوت طبول حرب. الجميع في الفصل التفتوا نحو "سمير"، وكأنهم ينتظرون مشهدًا دراميًا.

اقترب المعلم ببطء، وبدون أن ينظر إلى الورقة، طواها بحذر وكأنها تحتوي على سر خطير. رفعها بيده، ونظر إلى "سمير" بنظرة مزيج من الشفقة والتهكم. كان هناك شيء في تلك اللحظة يبدو وكأنه مشهد من مسرحية هزلية.

- "تفضل، "سمير"..."

قال المعلم أخيرًا، وكأنه يعطيه رسالة موجهة إلى شخص مهم، إلا أن الورقة كانت تمثل كل مخاوف "سمير".

كان "سمير" قد خطط لهذا اليوم في ذهنه, تصور أن يتلقى الورقة بابتسامة، يسحبها برفق، ينظر إلى العلامة بسرعة، ويضعها في الحقيبة دون أن يظهر أي رد فعل. ولكن كل خططه تبعثرت عندما رأى الورقة

مطوية بهذه الطريقة. كان يعلم، والجميع كان يعلم، أن الورقة المطوية هي العلامة الأسوأ.

تناول الورقة بيده ، والابتسامة المتصنعة لا تزال على وجهه، وكأنها محاولة بائسة للتظاهر بأن كل شيء بخير.

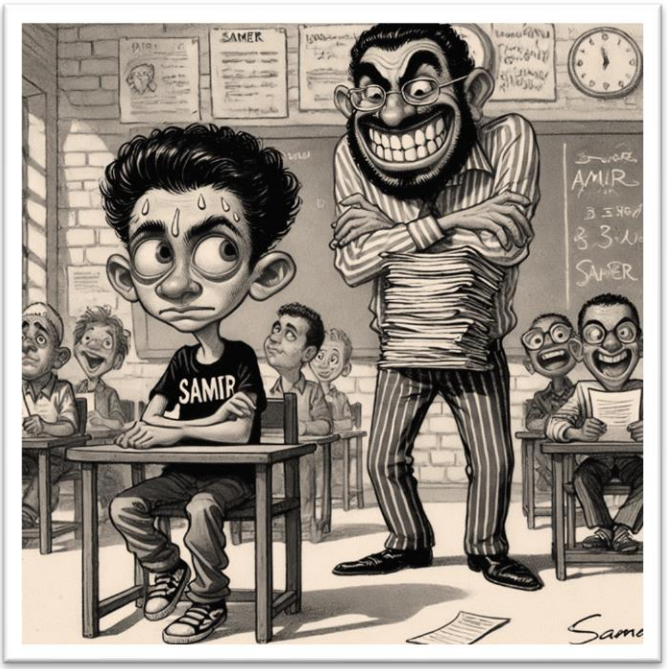

مشهد "الهدايا"

ابني، وهو في الصف الثاني، جاءني بحماسة وقال:

- " المربي يدعوك لحضور الحفل وأخذ شهادتي!"

فأومت له برأسي بالموافقة وابتسمت.

ذهبت إلى المدرسة ودخلت الفصل ورأيت الجو الاحتفالي: بالونات، أصوات الأطفال تعلو هنا وهناك، والمعلمات يوزعن ابتسامات لا تخلو من الإرهاق.

أما أنا، فوقفت أرتقب لحظة أخذ شهادة ابني.

ولما جاء دوري! استلمت الشهادة وألقيت نظرة سريعة عليها وابتسمت. علاماته كانت جيدة، ليست ممتازة، ولكنها مرضية. قلت لابني: "هيا، نذهب الآنّ!" لكنه، كطفلٍ يعرف كيف يستمتع بكل لحظة، نظر إلي بعينين متلهفتين وقال: "أريد أن آكل التورتة!"

فتدخل المربي وقال لي بابتسامة عريضة:

- "انتظر، لدينا هدايا!"

فقلت في نفسي: " جميل، هدية! ابني سيعود إلى البيت مبسوط."

وقف المربي أمام الطلاب مثل مذيع في برنامج مسابقات، وأعلن:

- "الهدايا للطلاب الذين كان معدلهم 95 فما فوق."!

وهنا، بدأت الكوميديا السوداء.

نظرت إلى ابني الذي يحاول فهم المعادلة: معدل أقل من 95؟ لا هدية؟ والأغرب من ذلك، أن المربي طلب مني أن أصوره وهو يسلم الهدايا للطلاب المتفوقين، وكأنني كاميرا الأخبار في حدث مهم.

- "صوّرني وأنا أمنح الفائزين الجائزة!"

وبالطبع، كنت أنا في مواجهة مع أفكاري التي تناقضت: أقف هنا أصور أطفالًا آخرين وهم يتلقون هدايا أمام عيون ابني.

فنظرت إليه، ونظر إليّ.. شعرت وكأنني شاركت في مؤامرة خفية ضد طفلي.

وفي النهاية، خرجنا من المدرسة. خطواتنا كانت ثقيلة وكأننا خرجنا للتو من مشهد غريب.. ودار في رأسي السؤال: "لماذا فعل المعلم ذلك؟"

مشهد "معلمة الرسم"

دخلت المعلمة "ليلى" إلى الفصل بخطواتٍ بطيئة، كأنها تسير بدافع الواجب أكثر من الحماس. كانت امرأة بدينة، تتحرك بصعوبة تحت عباءتها الفضفاضة التي بالكاد تخفي ملامح جسدها الثقيل. وجوه الطلاب تتبّع حركتها بلا اهتمام يُذكر، كما لو كانوا يشاهدون مشهدًا مكررًا من مسرحية مملة.

وقفت أمامهم، نظرت إليهم بعينين نصف مغلقتين، ثم قالت ببرودٍ معتاد:

- "أريدكم اليوم أن ترسموا أي شيء يخطر ببالكم".

بدت كلماتها جوفاء، كأنها تردد تعليماتٍ محفوظة بلا روح. الطلاب بالكاد تحركوا. البعض بدأ بالرسم على مضض، والبعض الآخر اكتفى بتقليب أوراقه أو النظر إلى السقف، كأنّ الإلهام ذاته هجر المكان. كانت الغرفة تفيض بالملل، صمت مملوء برتابة لا يكسرها سوى حفيف الأقلام المتكاسلة على الورق، ومعلمة تقف هناك، تراقب المشهد بعينٍ خاملة، كأنها جزء من هذه اللوحة الباهتة.

وفي الزاوية الخلفية من الفصل، كان "خالد" و"أحمد" يتحدثان ويضحكان بدلاً من الرسم.

بعد دقائق من التحديق في الأوراق الفارغة، بدأ الملل يتسلل بين الصفوف. تحرك "خالد" في مقعده، وعيناه تبحثان عن شيء يقتل هذا الوقت الثقيل. التفت نحو "أحمد"، جاره في المقعد، وابتسم بخبث صغير. بلمسة سريعة، وكأنها مزحة عابرة، جذب طرف بلوزة "أحمد". لم يكن يقصد شيئاً سوى المزاح، لكن البلوزة انزلقت عن كتف "أحمد" فجأة، كاشفةً عن جسده العاري.

انفجر الفصل بضحك صاخب، ضحكات متشابكة ارتفعت كالمدّ، وكأنها انتقام من لحظات الصمت القاتل. أصوات تداخلت، ابتسامات اتسعت، وبعض الطلاب وقفوا على أطراف مقاعدهم ليشهدوا الحدث من قرب. لكن وسط هذا الصخب، خفتت الأصوات تدريجياً، وتجمّد الجميع في أماكنهم عندما رأوا المعلمة "ليلى" تتجه نحوهم بخطوات ثقيلة، وكل خطوة كأنها صفعة تردّ الضحك إلى الصدور.

اقتربت منهم، وعيناها تقدحان بنظرة غاضبة، كأنهما شعلة تضيء في وجه الظلام. الصمت حلّ فجأة، ليترك المكان مثقلاً بترقب متوتر، وكأن الهواء نفسه صار ينتظر الانفجار.

- "خالد! ماذا تظن نفسك تفعل؟!"

صرخت بصوت مخيف. حاول "خالد" أن يشرح الموقف، وقال:

- "معلمه، لم أقصد! كنت أمزح فقط!"

لكن المعلمة لم تكن مستعدة للاستماع.

- "هذا غير مقبول على الإطلاق!"

قالت بغضب. ثم أمسكت بعصا كانت موضوعة على مكتبها، وأمرت "خالد" بمد يده.

مد "خالد" يده بتردد، وعيناه تلمعان بالخوف. بدأت المعلمة "ليلى" تضربه بالعصا على يده، ضربة بعد ضربة، حتى وصلت إلى عشرين ضربة. كانت كل ضربة تشعل ألمًا في يده، لكنه حاول أن يتحمل بصمت. الفصل كله كان ينظر بخوف إلى العقاب، ولم يجرؤ أحد على التدخل.

بعد أن انتهت المعلمة من العقاب، قالت ببرود:

- "اجلس الآن وركز على عملك. لن أسمح بمثل هذه التصرفات في فصلي مرة أخرى."

عاد "خالد" إلى مقعده ويداه ترتعشان من الألم.

جلس في صمت، يحاول أن يشغل نفسه بشيء ما ... ولكن الألم شديد...

مشهد "غياب المعلم"

كان الوقت منتصف النهار، والشمس في كبد السماء، تلقي بأشعتها الحادة على ساحة المدرسة، فيما كانت الأجواء داخل الفصول تعج بالفوضى. ضجيج الأصوات يختلط، وصدى الضحكات والصيحات يتردد في كل ركن. التلاميذ، كعادتهم، تائهون في هذا الفراغ، غير قادرين على تسخير لحظة واحدة لأمرٍ ذي قيمة. بدا وكأن غياب المعلم "سعيد" فتح بوابة للفوضى، وعبرها اندفعت كل طاقات الصغار بلا رقيب.

بحث المشرفون في كل مكان، من الصفوف إلى الممرات وحتى حجرة الإدارة، على أمل العثور على معلمٍ يتولى زمام الأمور. لكن كل من سألوا، هز كتفيه اعتذاراً أو أشاح بوجهه هرباً من المسؤولية. لم يكن هناك من يستطيع سدّ هذا الفراغ أو مواجهة تلك العيون الصغيرة التي تبحث عن أي منفذ للهروب من الملل. في النهاية، ظلّ الفصل في حالة انتظار عقيمة، كأنّ الجميع ينتظر قدوم معجزة تنهي حالة التيه هذه، لكن كل ما كانوا يسمعونه هو صوت الصخب، يمتد وينتشر بلا حدود، وكأنه يعيد تأكيد أن الفوضى هي سيد الموقف.

في ظل هذه الفوضى، ظهر فجأة البواب "عوض"، رجل متوسط الطول، دائمًا ما يبدو وكأنه يحمل على كتفيه هموم العالم. قال لنا بصوته الرتيب المبحوح:

- "هيا، اخرجوا إلى الساحة."

فخرجنا جميعًا إلى الساحة تحت شمس الظهيرة الحارقة، وكل منا يبحث عن شيء يفعله حتى ينتهي الدرس.

أما أنا، فقد وجدت متعتي الخاصة، تلك البلاطات السداسية الجميلة التي تمتد على طول الطريق بين الصفوف. كانت الأرضية قديمة، ولكنها كانت مثالية في ترتيبها، كأنها لوحة فنية مخبأة في مكان غير متوقع.

بدأت أعد البلاطات، واحدة تلو الأخرى، وأنا أقفز عليها وكأنني طائر "القرقزان"، سعيد باللعبة التي اخترعتها لنفسي.

كنت كالفراشة بين الزهور، أشعر وكأني أطير في عالم خيالي من البلاطات. لم يكن هناك شيء يفسد هذا التناغم الرائع بيني وبين الأرضية.

كنت غارقًا في لعبتي، متجاهلاً كل ما حولي. كان العالم من حولي يذوب، يصير مجرد خلفية باهتة، كل ما يشغلني هو مساري الذي أحاول رسمه بخطواتٍ متتالية. لكن فجأة، تمزق هذا السكون الخيالي بصوتٍ يشبه دويّ الرعد. صوتٌ قاسٍ، كأنه قادم من أعماق كابوسي.

- "هاي، أنت أيها اللعين! ماذا تفعل؟"!

ارتجفت في مكاني، كأن الأرض انشقت تحت قدمي. كان الصوت حادًا، مخيفًا، مثل صيحة وحشٍ أسطوري يخرج من عتمة كابوس، يخترق أذني بقسوة. شعرت به يقترب، يزأر في وجهي كأنفاس حيوان مفترس، وبلمح البصر، أحسست برذاذ لعابه يصطدم بخدي، حارقًا ومقززًا. لم يكن مجرد صراخ، كان انفجارًا من غضبٍ ملموس، أقوى من أن أتجاهله أو أستوعبه.

حاولت أن أشرح، أن ألملم الكلمات في عجالة وأحكي له أن المعلم غائب، وأنهم طلبوا منا الخروج. لكن الكلمات علقت في حلقي، لم تكن هناك فرصة. رأيت قراره في عينيه قبل أن أسمعه. كان سريعًا، حاسمًا، لا مجال للتراجع. وقبل أن تخرج حتى أول حرف من فمي، شعرت بالهواء ينفجر بجانبي، ثم "طرااااخ!"، صفعة مباغتة كسرت الصمت والوقت معًا.

الضربة دفعتني بلا إرادة، عدت إلى الصف وكأنني مسحور، يدي مرتجفة تمسك وجهي، أتحسس موضع الألم، أصابعي ترتعش بين الصدمة والذهول. نسيت كل شيء، حتى عدّ البلاطات التي كنت أعدها...

مشهد "علبة السجائر"

كان ذلك في الصف الثالث الابتدائي. حينها، كنت طفلاً نحيفًا إلى حدّ أن الرياح كانت تعاملني كصديق قديم، تحاول أن تلاعبني كلما مرّت، تحملني معها بخفة، تتركني أترنح كقصبة جافة. كنت دائمًا ما أشعر أنني أصغر مما ينبغي، أضعف من أن أواجه العالم أو حتى أتحدى الريح.

مدرستي كانت قطعة أخرى من زمنٍ متآكل، مبنى قديم يقف بشموخ متداعٍ، جدرانه متشققة كوجه عجوز ملّ الانتظار. كل شق كان يبدو لي كفمٍ مفتوح يحاول أن ينطق بكلماتٍ دفينة، كأن الجدران تئنّ لتحكي لنا قصصاً من زمنٍ لم نعرفه. أما النوافذ فكانت متصدعة، تهتز عند كل ريح، ترنّ بأصوات حزينة، وكأنّ المدرسة نفسها تعلن تعبها ورغبتها في السكون.

لكننا كنا صغارًا، لا نبالي بتلك الهمسات الصامتة للجدران. كنا نحول كل زاوية من هذا المكان العتيق إلى ملعب، كل شقّ إلى ممر سحري في قصصنا، كل ركن إلى سرّ صغير نتقاسمه. كنا نعيش في عالمنا الخاص، غير مدركين أن المدرسة تراقبنا بصمت، تحتفظ بأصوات خطواتنا وأحلامنا الصغيرة في كل لبنة من لبناتها العتيقة.

كنت تلميذا منتظمًا، لم أغب يومًا عن المدرسة. كان معلم العربية "أنيس" يميزني عن البقية، ربما بسبب نحافتي التي جعلتني أشبه بقلم الرصاص النحيل.

كان يبعثني كل يوم إلى "الكوشك" القريب لأشتري له علبة سجائر. يا لي من طفل مميز! كنت أرى في ذلك دلالة على حب خاص.

كل يوم، كنت أجري بلهفة نحو "الكوشك"، سعيدًا بمهمتي اليومية. فليس كل طالب يحظى بهذه الثقة.

لكن ذات يوم، وصلت إلى "الكوشك" ولم أجد السجائر. عدت بخفي حنين، لم أكن مستعدًا لمواجهة المعلم دون العلبة المعتادة. وعندما أخبرته أن السجائر غير موجودة، اغتاظ بشدة ونظر إلى بغضب، وبطرف عصاه التي لم يتركها يومًا، وكزني على يدي النحيفة. شعرت أن العظم قد كسر تحت الجلد، وكان الألم لا يحتمل. لقد كسر يدي.

عدت إلى البيت ودموعي تغمر وجهي الصغير. أخبرت أبي بكل ما حدث، بكلمات متقطعة. نظر إليَّ بعينيه الهادئتين، ثم أمسك بيدي وكأنها قطعة زجاج مكسورة، يحاول إعادة ترتيب شظاياها بحذر.

جلست في البيت لمدة شهرين، شهرين كاملين من الراحة والعناية. وحين انتهت فترة الراحة، عدت إلى المدرسة وقلبي يرقص بفخرٍ خفيّ. كان هناك شيء جديد في مشيتي، شيء يشبه النصر، كأنني عدت ليس بطفلٍ

هش، بل بشخصٍ قد استعاد كرامته. كنت أتخيله أمامي، المعلم الذي تجرأ على ضربي، كيف سيرى أبي، وكيف سيشعر عندما يواجه من يقف خلفي. "سيرى ما يستحقه!"، قلتها لنفسي مرارًا.

عندما وصلنا إلى المدرسة، دخلنا الفصل وكان قلبي ينبض بقوة، وأنا أستعد لرؤية المشهد الذي سيعيد لي كرامتي.

وعندما واجه أبي المعلم، ابتسم له، وقال:

- "أنت كسر وأنا بجبر".

هبطت عليّ هذه الكلمات كالصاعقة. شعرت بالاختناق ونزلت دمعة من عيني، دمعة لم أستطع ان حبسها.

مشهد "العريف"

كان يوم يبدو عاديًا جدًا.

المعلم "نبهان" كان يشرح درسًا من دروس العربية التي اعتدنا سماعها مرارًا وتكرارًا. الجو كان هادئًا، كل واحد منّا جالس في مقعده، يحدق في اللوح، متظاهراً بالانتباه. فجأة، قرر المعلم أنه بحاجة إلى الخروج لبعض الوقت. وكما هي العادة في مثل هذه المواقف، لابد من تعيين "العريف"، ذاك الطالب الذي يُمنح صلاحية أن يكتب على اللوح أسماء المشاغبين. وظيفة كنت أكرهها بشدة، وأتمنى ألا أكون المختار لها يومًا.

كنت أجلس في مقعدي، متخفياً خلف كتابي، أتمنى ألا تقع عين المعلم علي. كنت أخاف تلك اللحظة. الكتابة على اللوح ليست مشكلتي، بل الخوف من أن أصبح العدو العلني لزملائي في الفصل. إن كتبت أسماءهم، فلن يغفروا لي، وإن لم أكتبهم، سأنال عقاب المعلم.

وفي أحد الأيام المشؤومة، وقع الاختيار علي. قال المعلم "نبهان" بصوته الجهوري:

- "أنت اليوم العريف".

شعرت وكأن الأرض انشقت من تحتي. كانت عينيّ تتسعان، وقلبي ينبض بشدة، وكأنني على وشك الدخول في معركة مصيرية. لم أستطع حتى الاحتجاج.

كانت تلك لحظة صراع بيني وبين نفسي, كيف سأتصرف؟ هل أكتب الأسماء وأثير غضب زملائي؟ أم أتظاهر بعدم رؤية أي شيء وأخاطر بعقاب المعلم؟

وقفت أمام اللوح، وأمسكت الطبشورة. ولم يكن لدي خيار سوى الانتظار، والمراقبة.

مشهد "السؤال"

كان ذلك في الصف السابع الإعدادي، في حصة الرياضيات التي يلفّها دومًا عبق القلق ومشاعر الحذر، حيث تسكن الرهبة في الزوايا، وتمتزج الأرقام بخفقات القلوب المتوترة. كان المعلم "لافي" يجلس خلف مكتبه، معروفًا بابتسامته الماكرة التي تُخفي خلفها أسلوبه اللاذع، وكلماته التي تطير كسهامٍ بارعة، تصيب بلا رحمة. في كل حصة، كانت السخرية تحضر معه، كأنها رفيقته الدائمة، تنتظر اللحظة المناسبة لتنطلق نحو أحد الطلاب المسكينين، تاركةً آثارًا من الاحراج والتوتر.

كان الخوف يسري في عروق الطلاب كتيارٍ خفيّ، يُطوّقهم بسلاسل غير مرئية تمنعهم من المشاركة، فكانوا يلتزمون الصمت كأنهم خشبٌ مسنّد، يترقبون بحذر أن تنتهي الحصة دون أن تقع عليهم سهام السخرية. قلةٌ فقط من الطلاب كانوا يمتلكون شجاعة كافية لكسر حاجز الصمت، فيسألون بارتعاش أو يُجيبون بتلعثم، غير واثقين من أنّ كلماتهم لن تُصبح فريسةً سهلة لتلك النظرات اللاذعة التي تُطلقها عيناه كسهام تترقب الهدف التالي.

لكنني كنت مختلفًا. كنت دائمًا فضوليًا، أحب أن أسأل وأن أستفسر، وأشعر بأن الفضول هو بوابتي لفهم العالم.

وذات يوم، بينما كان المعلم "لافي" يشرح على اللوح، رسم خطًا بجانبه حرف (L) باللغة الإنجليزية. الحرف بدا غامضًا وغير مفهوم في سياق المسألة.

أخذني الفضول بسرعة، ورفعت يدي بثقة وسألت:

- "ما المقصود بحرف(L) بالإنجليزية؟".

كان سؤالي نابعًا من رغبة صادقة في الفهم، لكنني لم أكن مستعدًا لما سيحدث.

توقف المعلم عن الشرح فجأة، وأسدل الصمت جناحيه على المكان. رفع حاجبيه بابتسامةٍ ساخرة تُشبه ابتسامة صيّادٍ وقع بصره على فريسته. تقدّم بخطى ثابتة من مكانه، وصوته المتهكم يتردد كصدى في أرجاء الصف، مجبرًا جميع الأنظار على الالتفات نحوي، كأنها سهم موجّه نحو هدف واحد. ثم صاح متهكمًا، وقد علت نبرة صوته لتخترق سكون اللحظة:

- "حرف(L) ؟! إنه أول حرف من اسمي"!

ثم انفجر التلاميذ بالضحك.

شعرت وكأنني تلقيت ضربة في معدتي. كان الضحك يملأ الغرفة، وكنت جالس في مقعدي، بلا حراك. شعرت بإحراج شديد، وكأن العالم كله يراقبني وأنا أغرق في خجل لا حدود له.

ومنذ ذلك اليوم، انطفأ شيء ما في داخلي، كشمعة أُطفئت في ليلة عاصفة. لم تعد يدي تُرفع بحماسة كما كانت من قبل. تحوّل الفضول الذي كنت أحمله في قلبي كجوهرة ثمينة إلى عبءٍ ثقيل...

مشهد "الصفعة"

صفوفنا كانت مصطفة كأنها أسراب الطيور المهاجرة، تمتد بأجنحتها البيضاء من الشمال إلى الجنوب، تحلق في سماء الصباح كأنها لوحة مرسومة بريشة فنان. كنتُ محظوظًا أن أكون في الصف الأخير، حيث يتسنى لي مراقبة هذا المشهد البديع. هناك، في نهاية السرب، شعرت وكأنني الحارس الذي يرافق الطيور في رحلتها الطويلة، أرى رفرفة الأجنحة، وأسمع همسات الرياح، وأراقب خطواتنا وهي تكتمل بروّية وانسجام، كأننا ننسج خيوطًا من نور، ونرسم خطًا مستقيمًا في أفق الحلم.

من مكاني، كانت أصوات العصافير تتسلل برقةٍ إلى مسامعنا، كأنها تداعب أوراق الشجر بأناملها الصغيرة، تعزف لحنًا منسجمًا مع نسمات الصباح العذبة. تشاركنا لحظات الهدوء برائحة التراب. هناك، كانت المدرسة الابتدائية تبدو كخلية نحل تضج بالحياة، وفصول الأوائل تفيض بضحكات الأطفال وصيحاتهم الممزوجة بشغف التعلم. كنتُ أسمع أصواتهم وهم ينشدون الأحرف الأبجدية: "ألفٌ! باءٌ! تاءٌ! ثاءٌ!"، فيتناغم صوتهم في الفضاء كأنهم أوركسترا من الطيور تغني لحن المعرفة، يرتفع بإيقاعٍ رشيقٍ يشبه خفقات الأجنحة، وكأن الحروف تتراقص معهم، ترسم في الهواء لوحات من نور.

كنا نحن، طلبة المرحلة الإعدادية، نحيا أيامنا المدرسية ببساطة كأحلام الصغار، حيث تتداخل اللحظات ما بين درسٍ ودرسٍ، وبين ضحكات خفية وأحلامٍ مشاغبة. كانت هناك خمس دقائق فقط ننتظرها بفارغ الصبر، نعدّ الثواني كما لو أنها خطانا نحو الحرية، لنهرب جميعًا إلى حنفية الماء، حيث الهروب الصغير من حصار الدروس وضغوط المعلمين. كانت الساحة تمتد بيننا وبين الحنفية كأنها صحراء صغيرة، مكسوة بالرمل والحصى، لكننا كنا نعتبرها واحتنا التي تبتسم لنا في قسوة اليوم.

وفي يوم من أيام الصيف اللاهبة، عندما كانت الشمس تتسلل بأشعتها الحارقة إلى كل زاوية، تكاد تلتهم كل شيء تحتها، خرجنا كعادتنا لنلتقط أنفاسنا ونشرب قطرات الماء الباردة، لعلها تخفف من لهيب العطش. وبينما كنا نحاول أن نسرق لحظة من الهدوء، فجأة دوى في الأرجاء صوتٌ يمزّق السكون:

- "الأستاذ سمير! الأستاذ سمير"!

وانطلق الجميع كالفئران المذعورة، تفرّ من قسوة قطٍ جائع، تائهة بين زوايا الساحة كأنها ريح عاصفة تعصف بأوراق خريفية. كان الأستاذ "سمير"، مناوب ذلك اليوم، يقف كعملاقٍ أسطوريٍ في منتصف الساحة، كأنما خرج للتو من كتب الحكايات القديمة. طوله الفارع، وعرض كتفيه، وعيناه الجاحظتان تلمعان تحت وهج الشمس، يشع منهما بريق دموي كالشرر، وأنفه المعقوف

كمنقار صقر، ورقبته الطويلة التي تنحني قليلاً نحو الأمام وكأنه يحدّق في فريسته بترقب. كان مشهدًا أشبه بالوحش الذي يبث الرعب في قلوب من حوله، فلا يجرؤ أحد على مواجهته أو حتى النظر في عينيه.

دوّى صوته كالرعد، شقّ صمت المدرسة، وزلزل الأرجاء. صوتٌ يفتت شجاعة الصغار ويبعثرها كحبات رمل في مهبّ الريح. كنت أرى زملائي يتطايرون في كل اتجاه، يهربون كالريح، وكأن قدميهم قد حملتهم بعيدًا قبل أن يلتقطوا أنفاسهم. أمّا أنا، لسبب ما، بقيت ثابتًا في مكاني. أحسست بجسدي كله يتشنّج، كأن جذورًا خفية قد نبتت من قدمي وغرست نفسها في الأرض. في تلك اللحظة، عادت بي الذاكرة إلى درس الصف الرابع، عندما أخبرنا المعلم عن عبد الله بن الزبير، ذلك الفتى الذي واجه عمر بن الخطاب بثبات. حين سأله عمر: "لماذا لم تهرب مع الصبية؟" أجاب عبد الله بثقة لا تهتز: "لم أرتكب ذنبًا فأخاف منك، ولم يكن الطريق ضيقًا فأوسع لك." ترددت كلمات الفتى في رأسي كصدى يضجّ في كهفٍ عميق. تمنيت أن أمتلك شجاعته، أن أكون ذلك البطل الذي يواجه الرعب بثبات، أن أقولها بصلابة: "لم أرتكب ذنبًا، فلماذا أهرب؟"

آه، يا لي من أحمق! وقفت كالصخرة في وجه العاصفة، ظننت للحظة أنني بطل لا يهاب، ولكن الحقيقة كانت بعيدةً كل البعد. تمنيتُ حينها، وأنا أرى زملائي يختفون كظلال تتلاشى تحت وهج الشمس، لو أنني استجبت لغريزة الخوف وهربت مثلهم، لو أنني تركت شجاعتي الزائفة تذوب

كذوبان الشمع تحت اللهب. شعرت وكأنني أُحاصر بين شعورين؛ رغبة في الثبات وحاجتي للهرب.... يا لي من أحمق!

وبخطوات بطيئة ومرتبكة، عدت إلى الفصل، بينما دقات قلبي تتسارع. دخلت وجلست مكاني، ظننت أنني نجوت. ولكن لحظات بعد ذلك، دخل الأستاذ "سمير"، كان غاضبًا، عيناه تتطايران بالغضب، شعره متطاير، وأوداجه منتفخة، ووجهه أحمر كالجمر.

وقف بجانبي، وهنا توقفت أنفاسي. كنت أتوقع أن يسألني السؤال العظيم الذي جهزت إجابته.

لكنه رفع يده إلى السماء، وهوى بها على وجهي، و"طرااااخ!"

دوى الصوت في أرجاء الغرفة.

اهتزت روحي، وانكسر شيء ما بداخلي.

خرج الأستاذ "سمير"، بينما كنت أنا أواجه دمعة وحيدة حاولت كتمانها.

وخارج الصف، كانت أصوات الأطفال لا تزال تتردد في الهواء، تنشد:

- "ألفٌ! باءٌ! تاءٌ! ثاءٌ!"

مشهد "اجنحة الطفولة"

كانت مدرستنا جميلة، تنبض بالحياة كأنها لوحة مرسومة بيد فنان. طرقاتها المرصوفة تمتدّ أمامنا كأنها خيوط من نور، وساحاتها الواسعة تتسع لأحلامنا الصغيرة، ترحب بنا كأحضان أمٍ دافئة. في كل زاوية، كان هناك ركنٌ يحمل ذكرى، وكل شجرة تهمس لنا بحكايةٍ من الماضي. كنا نركض بين أروقتها كفراشات ملونة تطارد أحلامها، تشعر أن المكان بأسره يبتسم لنا، يفتح لنا ذراعيه، يدعونا لأن نعيش طفولتنا بلا قيود، بلا خوف، وكأن ساحات المدرسة كانت عالمًا سحريًا، يمتد بلا نهاية، مثل الأحلام.

الأشجار العالية تحيط بالمكان، تحميه كأنها حراسٌ أوفياء، وطرقاتها التي تتفرع بين الصفوف كانت أشبه بأذرع أخطبوط تحتضن المباني برفق.

كنا نسير بين تلك الطرقات، بأقدامنا الصغيرة نقفز من بلاطة إلى أخرى، نحسب عددها أحيانًا، وأحيانًا أخرى نقفز فقط لأننا نريد الطيران، كما لو كنا نختبر أجنحتنا التي لم تكتمل بعد. كل قفزة كانت تجعل قلبي يرفرف بالسعادة، ووجهي كان يغمره نور البهجة.

في ساعات الصباح الباكرة، كنا نصطف في الساحة الكبيرة، وأشعة الشمس تلامس بشرتنا القمحية بخفة، كأنها تداعبنا.

كانت ظلال الأشجار الكبيرة ترسم ملامح الطريق أمامنا، بينما النسمات الباردة تلعب على وجوهنا. الصفوف كانت تتشكل في مشهد جميل ومرتب، يبدأ بصفوف البستان الصغيرة، ثم الأول، والثاني، وصولًا إلى الصفوف العليا.

كان المشهد أشبه بلوحة فنية، حيث كانت الأطوال المختلفة للأطفال تشكل مشهدًا يجذب كل من يمر. لو نظرت إلى تلك الساحة، لعلت وجهك ابتسامة واسعة، مشهد مليء بالحياة.

أما أنا، في ذلك اليوم، كنت في الرابع ابتدائي، أقف بين زملائي، أنظر إلى يساري، أرى الثالث ومن بعده الثاني والأول، ثم البستان. كانت تلك اللحظة تجعلني أشعر بالعلو، برأس مرفوع وصدر مليء بالفخر. كنت أشعر وكأني في أعلى القمم.

لكن عندما كنت ألتفت إلى يميني، كان الخامس والسادس يليه السابع ثم الثامن، فينتابني شعور مختلف. كانت الابتسامة تختفي ببطء. كنت أفكر، متى سأصل إلى الثامن؟ متى سأشعر بالعلو الحقيقي، وأرى جميع الرؤوس من أعلى؟

آه، كم بطيئة هي الأيام! كم كنت أتمنى في تلك اللحظة أن أكون ساحرًا، أن أقفز عبر الزمن، لأجد نفسي في الثامن، أنظر إلى كل تلك الصفوف التي كانت يومًا أمامي.

وفجأة، قطع صوت المعلم أفكاري, بصوته الغاضب، كسر الصمت ، نبراته كانت كالسوط تلسع الأجواء:

- "أنت، يا حمار! انتبه وافعل التمارين!"

تجمدت الكلمات في داخلي، ارتعدت أفكاري كعصفور صغير يواجه عاصفة فجائية.

ثم، عاد صوته يخترق رأسي من جديد، مرتفعًا ، كأنه يلتهم الفراغ حولنا:

"انتظم... أسبل... انتظم... أسبل!"

مشهد "الرحلة"

أسمي "أحمد".

في أحد الأيام، خرجتُ مع أبي وأمي وإخوتي في رحلة عائلية، كانت مليئة بالضحكات وصدى المرح المتناثر بين الأشجار. كنا نركض كالفراشات في حقل من زهور السعادة، نطارد لحظات الفرح التي بدت بلا نهاية. كنت أركض بحريةٍ، أتنفس عبق الطبيعة، حتى تلك اللحظة الفاصلة... عندما تعثرتُ فجأة، وسقطت على حجرٍ كبير. للحظة، تردد الزمن، وشعرت أن كل شيء تجمّد حولي. لم أفكر كثيرًا، لم أشعر بالألم فورًا، وكأن جسدي رفض تصديق ما حدث. لكن، عندما التفتُّ ونظرت إلى كتفي، رأيت الجرح ينزف. لحظتها، لم يكن الجرح هو ما أخافني، بل الصدمة التي ارتسمت على وجه أبي.

ارتعب والدي فور رؤيته الدماء، وبريق الخوف في عينيه جعلني أدرك أن الأمر أكثر من مجرد سقوطٍ عابر. هرعت أمي نحوي، وملامحها تكسوها موجات من الذعر. رأيت يديها ترتعشان وهي تحاول أن تلامس كتفي بحذر، كأن لمستها قد تزيد من ألمي. لم أكن أعرف كيف أهدئ من مخاوفهم، فابتسمت ابتسامة صغيرة، مرتبكة، لكن الدماء كانت أقوى من

ابتسامتي. قطرات حمراء تساقطت ببطء، تلوّن ملابسي، وتزيد وجوههم شحوبًا.

صرخ أبي:

- "لا بد من المستشفى!"،

فأمسكت أمي بكتفي واحتضنتني بحذر، بينما ساق أبي السيارة بسرعة وكأننا في سباق مع الزمن.

الغريب في الأمر أنني لم أشعر بالألم الشديد إلا بعد وصولنا إلى المستشفى. حينها، بدأ الألم في كتفي وعنقي يزحف ببطء، ليصبح واقعيًا ومؤلمًا.

خاط الطبيب الجرح بعناية، وأخضعوني لفحوصات كثيرة، كأنني بطل قصة مغامرات يخضع لاختبارات شجاعة. وبعد كل ذلك، أطلقوا سراحي، وعدنا إلى البيت.

لكن المفاجأة كانت في المنزل. أصدقائي في الحارة تجمّعوا حولي، وأصواتهم المليئة بالتعاطف كانت تدغدغ غروري:

- "الحمد لله على سلامتك "،" مسكين، كيف حدث هذا؟"

كانوا يلمسون رأسي بحنان وكأنني قد عدت من معركة خطيرة. حتى النساء جئن ليطمئنَّ عليّ ، وأبي كان يلبي لي كل طلباتي كأنني ملك على عرشه.

أما أمي، فقد كانت تقوم بتغير ملابسي وتعتني بي وكأني الأمير الصغير في القصر.

أما الجزء الأفضل من كل ما حدث، فهو أنني كنت معفى من الذهاب إلى المدرسة! كل صباح، كنت أجلس على الأريكة كملك صغير، أراقب إخوتي وأصدقائي من خلف نافذة غرفتي وهم يمضون بخطواتهم الثقيلة إلى عالم الوظائف والامتحانات، بينما أظل أنا في المنزل، أتمدد بارتياحٍ دون أي هموم. كنت أودّعهم بابتسامة صغيرة.

في تلك اللحظات، شعرت أنني فزت بجائزة لا يحصل عليها إلا المحظوظون: راحة البال وحرية بلا قيود، بعيدًا عن صفوف الدروس المملة وصيحات المعلمين. كانت الراحة التي أحظى بها أشبه بعطلة طويلة، مزيّنة ببعض التدليل والاهتمام من الجميع، كأن إصابتي قد منحتني تاجًا صغيرًا من الامتياز.

وفي خضم كل تلك السعادة والراحة، بدأت غيمة صغيرة من التساؤل تحوم في عقلي. بينما كنت أتمدد على الأريكة، أفكر في حظي السعيد بالابتعاد عن المدرسة، تسللت إلى قلبي فكرة صغيرة، خافتة، لكنها واضحة: لماذا لم يأتِ أحد من زملائي لزيارتي؟"

"هل انشغلوا حقًا بواجباتهم المدرسية؟ أم أنهم ببساطة... نسوا أمري؟ كنت أتخيل وجوههم في المدرسة، جالسين في الصفوف، يضحكون،

يتبادلون الأحاديث في ساحة اللعب، دون أن يذكرني أحد. شعرت بشيء غريب يجثم على صدري. كانت فرحتي بالعطلة الطويلة تتلاشى ببطء، كغيمة بيضاء تذوب في سماء ملبدة بالأسئلة. هل يعقل أنني لم أكن مهمًا لهم؟ أم أن إصابتي كانت مجرد حدثٍ عابر، لم يترك لديهم شيئًا ليقلقوا بشأنه؟" لكن رغم كل تلك التبريرات، لم أستطع تجاهل شعور الوحدة الذي بدأ يتسلل إلى قلبي، يخدش السكينة التي أحاطتني في البداية، ويحوّل الراحة التي استمتعت بها إلى هدوءٍ مزعج.

الأيام مرت، وجرحي بدأ يلتئم تدريجيًا، وآن أوان العودة إلى المدرسة.

في صباح اليوم الذي عدت فيه، كنت متحمسًا جدًا. ارتديت ملابسي بسرعة وتوجهت إلى المدرسة، متخيلًا لحظة دخولي كالبطل العائد من معركة. كنت أعتقد أن الجميع سيحتفون بي، وسأكون نجم اليوم. كنت متأكدًا أن المعلمة ستسألني عن قصتي البطولية، وأحكيها لها أمام الجميع.

دخلت المعلمة، وعلى غير عادتها، كانت ملامحها متجهمة، كأنها استيقظت على الجانب الخطأ من السرير هذا الصباح. كان وجهها عابسًا، وكأن غيمة سوداء استقرت فوقه. قلت في نفسي وأنا أجلس في مقعدي: "ربما ستتوجه إليّ وتسألني كيف حالي، سأحكي لها قصتي، ستستمع،

وربما تبتسم". تقدمت نحوي، دون أن ترسم حتى نصف ابتسامة، ووقفت قبالتي. وقالت:

- "أين الوظيفة؟"

ا بدهشة، كيف تسألني عن الوظيفة وأنا كنت غائبًا؟ قلت لها:

- "أي وظيفة؟ كنتُ غائبًا..."

لكنها لم تُظهر أي تعاطف. استشاطت غضبًا وأمسكت بمسطرتها وكأنها تلوح بها كالسيف. قبل أن أدرك ما يحدث، هوَت المسطرة على يدي بقسوة، وشعرت بصفعة الألم تسري في جسدي. لم يكن الألم جسديًا فقط، بل كان إحساسًا بالانكسار الداخلي.

سقطت دمعة من عيني، وجلستُ مكاني، دون أن أحرك ساكنًا.

مشهد "الوظيفة البيتية"

كنت حينها في الثامنة من عمري.

أركضُ في الصباح الباكر مسرعًا نحو المدرسة مع أقراني، كما لو أنني في سباق مع الفراشات. كانت الفراشات ترفرف من حولي بأجنحتها الجميلة، حرةً طليقة، سعيدة كل السعادة، فهي لم تذهب يومًا إلى المدرسة، ولم تجلس ساعات طويلة لحل الوظائف المنزلية المزعجة.

لا أحد يقول لها: "افعلي هذا" أو "افعلي ذاك". كانت تفعل ما يحلو لها.

وعندما نصل إلى المدرسة، نفترق وأعود إلى عالمي الواقعي.

بعد يوم دراسي طويل، عندما يدق الجرس معلنًا نهاية الدرس الأخير، أجد نفسي أطير من الفرح. قلبي يرقص وتعلو وجهي ابتسامة مشرقة. لكن سرعان ما يتغير كل شيء عندما أصل إلى البيت، حيث تستقبلني أمي بصوتها الحازم:

- "الوظائف المنزلية!".

آه، الوظائف المنزلية، اللعنة عليها! فلتأخذها الشياطين!

أذكر ذلك اليوم الذي أعطاني فيه معلم الحساب وظيفة بيتيه طويلة ومعقدة. بصراحة، لم أفهم شيئًا منها، ولا أدري حتى كيف يفهمها هو! لكن لم يكن هناك مفر. كنت أعلم أنني إن لم أحلها، فسوف ينهال عليّ إما

بضربات قاسية أو بصراخه الذي يخلخل العظام. كان هذا المعلم قاسيًا جدًا، وكنت أخاف منه أكثر مما أخاف من أي شيء آخر.

أخذت كتاب الحساب وتوجهت إلى أبي، علّه يستطيع إنقاذي من هذه الورطة.

تفحص أبي الكتاب، نظر إليه بعينين مشدوهتين، ثم عبس وقطب جبينه كأنه يواجه لغزًا معقدًا. تنحنح وتحرك مرتين من مكانه، وعرفت حينها أن الأمور ليست على ما يرام. قال لي أخيرًا، وهو يحرك حاجبيه:

- "ما هذا الكتاب؟ كيف تتعلمون هذه الأشياء؟ أنا لا أفهم شيئًا منه!"

ثم أعطاني الكتاب وقال:

- "اذهب إلى أمك، فهي قد تشرح لك المسألة أفضل مني."

أدركت حينها أني لن أجد مخرجًا، ولن أتمكن من حل الوظيفة. نمتُ تلك الليلة خائفًا، أحلم بوجه معلم الحساب وعصاه الغليظة.

في نومي، حلمتُ أنني أركض في وادٍ عميق وطويل ، بينما يركض المعلم خلفي، وعلى وجهه ملامح الغضب، وفي يده عصا ضخمة. الغريب في الحلم هو أن المعلم كان على هيئة حمار ضخم، بأذنين طويلتين وأنف مدبب. كاد أن يفتك بي لولا أنني أفقت من النوم.

ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي، وكان الخوف شديد. جلست في مقعدي، أترقب مصيري الحتمي، لم أكلم أحدًا، ولم أفكر إلا في الوظيفة التي لم أحلها.

دخل معلم الحساب، الرجل الضخم ذو الفكين الكبيرين، عيناه جاحظتان، وأنفه كبير، وكرشه مدلّاة فوق حزامه. دخل إلى الصف وكأن هدير أنفاسه يسبق خطاه.

جلس على الكرسي وأخذ يتفحص اليوميات. ثم عطس فجأة، فتطاير رذاذه في كل مكان، ومسح فمه بكم قميصه.

ثم نظر إلينا وتنحنح قائلاً:

- "يا الله! توكلتُ على الله!"

وقف من مكانه بعنف واستطرد:

- "الوظيفة! تفتيش!"

في تلك اللحظة ارتعدتُ من الخوف، وكنت أحبس أنفاسي بصعوبة. لكن، وكأن السماء استجابت لدعائي، دخل مدير المدرسة إلى الصف دون استئذان، وكان مبتسمًا، وبرفقته شخص يحمل حقيبة سوداء كبيرة. قال المدير بصوت هادئ:

- "السلام عليكم يا شطار!"

رددنا بصوت واحد:

- "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!"

نظر المدير إلى معلم الحساب الذي وقف متجمدًا في مكانه، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صفراء باهتة. أكمل المدير قائلاً:

- "أقدم لكم المفتش... سوف يحضر معكم الدرس."

جلس المفتش في الغرفة وخرج المدير. وهنا، وكأن نجم الحظ قد أشرق عليّ، تحولت ملامح معلم الحساب من غضب إلى لطف مفاجئ. تنحنح وقال بنبرة مغايرة:

- "والآن يا شطار! تعالوا بنا نتعلم درس القسمة على اثنين!"

والأغرب من كل ذلك أننا كنا قد تعلمنا هذا الدرس قبل يومين! لكنني لم أهتم.

ما يهمني هو أن التفتيش على الوظيفة قد ألغي، وأنني نجوت من غضب المعلم.

مشهد "الاصغاء"

كنتُ أجلس في مكاني المعتاد في الصف، وعقلي الصغير مشغول بكل شيء ما عدا الدرس.

لم تكن المدرسة تهمني كثيرًا، فما كان يشغلني في الحقيقة هو مراقبة المعلم وحركاته العجيبة.

كانت لدي مشاكل في الإصغاء والتركيز، ودائمًا ما كنت أجد نفسي غارقًا في التفاصيل غير المهمة، مثل حركة أصابع المعلم أو طريقة رفع حاجبيه، بدلاً من متابعة الكلمات التي تخرج من فمه.

كان المعلم يلوح بيديه الغليظتين، وأصابعه المدببة المغطاة بالشعر الكثيف تتحرك كأنها تمثل عرضًا مسرحيًا. جبينه المنكمش كان يندس عرقًا، وصوته الأجش يملأ المكان، حتى بدا كأنه يزعزع الجدران. انتفخت أوداجه وازداد أنفه احمرارًا، وكان يبدو وكأنه في نوبة غضب شعواء. وبينما كان يواصل إلقاء محاضرته العجيبة، تذكرتُ ديك الحبش الذي يملكه جيراننا. كان ذلك الديك الأسود دائمًا يزغرد ليلًا ونهارًا في باحة بيتهم الواسعة، يدور حول نفسه وكأنه ملك متوج على عرشه. في تلك اللحظة، تخيلتُ المعلم مكان ذلك الديك، يزغرد ويجول أمامنا ونحن ننظر إليه باهتمام.

لا أذكر حينها عن أي شيء كان المعلم يتحدث. ربما كان يشرح مسألة رياضية أو يتحدث عن التاريخ، لكنني كنت مشغولًا بصوت الصفير الذي يصدر منه كلما تكلم. لم أكن أعلم من أين يأتي ذلك الصفير، لكنه كان يثير فضولي. كانت كل كلمة ينطقها المعلم يرافقها صفير غريب، وكأن هناك آلة موسيقية خفية ترافق محاضرته. أما الحروف التي تتناثر من فمه، فقد كانت تتلاشى في الهواء وتختلط برذاذ لعابه، الذي كان ينهمر في كل اتجاه.

والأمر الأكثر إثارة هو أنه كان يمسح أنفه بين الحين والآخر، ولكن ليس بشكل عادي. كان يمسحه بقوة وكأنه يريد اقتلاعه من مكانه، فيزداد أنفه احمرارًا أكثر وأكثر، حتى أصبح شبيهًا تمامًا بعرف الديك الأحمر الذي يزغرد في مخيلتي. كلما ازدادت حركاته غرابة، ازدادت زغاريد الديك الوهمية في أذني، وكأنني أعيش مشهدًا من مسرحية مضحكة.

رغم أني كنت في الصف، محاطًا بالهدوء التام وزملائي المنهمكين في الكتابة، إلا أن عقلي كان بعيدًا جدًا. كنتُ أعيش في عالمي الخاص، أراقب الديك, أقصد المعلم وهو يواصل حركاته الرتيبة وزغاريده المستمرة. وصوت الصفير الذي كان يصاحب حديثه لا يزال يشغلني أكثر من أي شيء آخر.

مشهد "العقاب الصباحي"

كان الجو حاراً، وأشعة الشمس تنعكس على أرصفة الشارع كأنها ألواح من ذهب، والسراب يرقص في الأفق، رغم أن اليوم قد بدأ لتوه والساعة ما زالت السابعة والنصف صباحاً. كنتُ أمسك فنجان القهوة بيدي، أراقب الأطفال وهم يسيرون باتجاه المدرسة الابتدائية.

كان في هذه المشاهد شيء يوقظ الذكريات، ويعيدني إلى تلك الأيام عندما كنت أنا أيضًا أحمل حقيبتي على ظهري، وأعد البلاطات المرصوفة التي تؤدي إلى الفصل.

كنتُ أرى نفسي بين هؤلاء الأطفال، أتسابق مع أصدقائي لندخل الفصل قبل الجرس، ننتظر المعلم. وبينما كنتُ غارقًا في هذه الذكريات الجميلة، فجأة أفقتُ على صوت صراخ تلميذ يقطع السكون:

- "بتوب... بتوب. بتوب.. أمانة لا.. أمانة لا..."

صوت الصراخ أيقظني تمامًا من أحلامي، وبدأت أبحث عن مصدره. بعد لحظات، رأيت المشهد، تلميذ، لا يزيد عمره عن الثامنة، يسير على أطراف أصابعه، بينما المدير يمسك بأذنه بقسوة.

كان المشهد قاسيًا، المدير يسحب الطفل من أذنه بقوة لدرجة أنني ظننت أنه سيقتلعها. الصغير كان يتبع المدير بسرعة، وصوته يملأ الأرجاء:

- "بتوب... بتوب... بتوب... خلص أمانة..."

المدير، في مشهد ينافي كل منطق الإنسانية، كان يتابع عقابه بلا أي تعبير على وجهه، وكأنه مجرد يوم عادي بالنسبة له.

لم يكن هناك أي أثر للشفقة أو التعاطف في ملامحه. بدا وكأنه كان يحتسي قهوته بهدوء بينما كان يمارس هذا العقاب.

المشهد بأكمله كان غريبًا، حتى أنه كسر تدفق ذكرياتي الجميلة، وأعادني بقسوة إلى الواقع.

وقفتُ هناك، وأحزنني ما رأيت.

كنت قد بدأت صباحي مع ذكريات طفولتي، أعد الأيام الجميلة، لكن في لحظة واحدة، اختفت كل تلك الذكريات، وتلاشت البسمة التي كانت ترتسم على وجهي.

مشهد "سالم"

كان "سالم" يجلس في السطر الأول في الفصل، تلميذًا قصير القامة وهادئًا للغاية.

كنا حينها في الصف الخامس الابتدائي، و"سالم" من النوع الذي لا يتحدث كثيرًا، بالكاد كان يُسمع له صوت.

كان ينظر إلى معلم اللغة الإنجليزية بعينيه الضيقتين، وكأنه مستمتع بما يسمع، وبين حين وآخر كان يبتسم بلا سبب ظاهر. ثم يدير وجهه إلى الخلف وكأنه يحاول الاختباء من شيء لا يراه أحد سواه.

"سالم" لم يكن تلميذًا بارعًا، فشرح المعلم كان يمر أمامه كأنه نسمة خفيفة دون أن يلتقط منها شيئًا. لم أره يومًا يرفع إصبعه للإجابة على سؤال، إلا عندما كان يحك رأسه أو قفاه.

في كل صباح، كان "سالم" يأتي مبكرًا، يجلس في مكانه المعتاد، يفتح حقيبته ويخرج كتابه ودفتره وقلمه، ثم يتركها أمامه دون أن يستخدمها. كان ينظر إليها وإلى المعلم الذي يشرح وكأنه يفهم ما يُقال. وإذا سأله المعلم سؤالًا، كان يضع يده على رأسه ويبتسم ابتسامته المعتادة دون أن ينطق بكلمة. بصراحة، لم أسمع صوته قط، وكنتُ أتمنى أن أسمعه ولو لمرة واحدة.

في أحد الأيام، والجو كان حارًا جدًا، وقف معلم اللغة الإنجليزية أمامنا يشرح الدرس، وجبينه يندس عرقًا وعيناه محمرتان من شدة الحر. بالطبع، لم نكن نعرف ما هو المكيف في تلك الأيام، وكنا نكتفي بالنسمات القليلة التي تهب بين الحين والآخر.

كان المعلم يكتب كلمات إنجليزية على اللوح ويكررها بصوت عالٍ، ونحن نردد خلفه، حتى شعرنا أن صوته أصبح جزءًا من الجو الحار.

وفجأة، سكت المعلم ونظر إلينا بتفحص كأنه يبحث عن شيء ما. رفع حاجبيه الغليظين وضم عينيه قليلاً، ثم فرك عينه اليسرى وتنحنح وقال:

- "من منكم يعرف جمع كلمة *man*؟"

ساد الصمت في الغرفة، وعمّ السكون المكان. لم يجرؤ أحد على الإجابة، وظل الجميع في حالة ترقب. وبعد لحظات من الصمت، فجأة، ارتفع إصبع "سالم" إلى الأعلى.

نظرنا جميعًا إلى "سالم" بدهشة واستغراب، وكأننا نشهد حدثًا استثنائيًا. حتى المعلم تسمر في مكانه، وقد ظهرت علامات الصدمة على وجهه. "سالم" يرفع إصبعه للإجابة؟! هذا لم يحدث من قبل. ابتسم المعلم ابتسامة نصر داخلي، وكأنه قد حقق إنجازًا عظيمًا، وقال في نفسه:

- "ها هو "سالم" يفهم شيئًا أخيرًا! لقد حققت المعجزة، يا لي من معلم عبقري!"

ثم اقترب من "سالم" بلطف وقال:

- "نعم يا عزيزي "سالم"، تفضل، قل ما لديك."

أنزل "سالم" إصبعه ببطء، وابتسم ابتسامته المعتادة، ثم قال بصوت مكتوم يخرج من بطنه:

- "أريد أن أشرب ماء."

في تلك اللحظة، تحطمت أحلام المعلم كما لو كانت زجاجًا هشًا.

تراجع خطوة إلى الوراء، فرك أنفه بقوة، واحمر وجهه من شدة الغضب.

انتفخت العروق في رقبته، ثم صاح بصوته المبحوح:

- "أيها الوقح! أهذا وقت طلب الماء؟! ألا تخجل؟ اخرس في مكانك!"

ساد الصمت مرة أخرى في الغرفة، ولكن هذه المرة كان صمتًا مشوبًا بالخجل.

حتى "سالم"، الذي دائمًا ما كان يبتسم، توقفت ابتسامته، وجلس في مكانه دون حراك.

أكمل المعلم الدرس، ونحن نردد خلفه... لكنني كنت منشغلًا بشيء واحد : أخيرًا، سمعتُ صوت "سالم".

مشهد "الفَلقَة"

في الصف الرابع، كنت من الطلاب الممتازين، دائمًا في طليعة الأوائل بعلاماتي الجيدة، لكن ما كان يميزني أكثر من ذلك كله هو تلك الحساسية المفرطة التي تملكتني تجاه زملائي. لم يكن تفوّقي وحده ما يحدد شخصيتي، بل قدرتي على الشعور بألم الآخرين، خاصة أولئك الذين كانوا يُعاقَبون مرارًا، وكأنهم اعتادوا على الأذى. كنتُ أرى نظراتهم المكسورة، أسمع همسات الخوف تتسلل من أفواههم حينما يقترب منهم المعلم، وكنت أشعر أن كل ضربة بالعصا، كل كلمة قاسية، كانت تهبط على قلبي قبل أن تلامسهم.

في كل مرة أرى فيها أحدهم يطأطئ رأسه خجلاً أو يخفي دمعةً خلف كفه الصغير، كنت أجدني أرغب في النهوض، في قول شيءٍ ما، أي شيء قد يخفف من وطأة العقاب عليهم، لكن الكلمات كانت تنحبس في صدري، تُغلّها قيود الخوف.

في الفصل، كان هناك طالبان، شقيقان، لا يكاد يلاحظهما أحد. لم أسمع صوتهما قط منذ الصف الأول، كانا هادئين للغاية، لا يعرفان شيئًا سوى الابتسامة.

كانا يواظبان على الحضور كل يوم، مثل عقارب ساعة لا تتوقف. يرتديان نفس اللباس الموحد دائمًا، قميصًا أزرق وبنطلون جينز، كأنهما نسخة مكررة من بعضهما، نسخة واحدة تتكرر في اليوم التالي. يجلسان دائمًا في آخر الصف، هناك في الزاوية المعتمة التي تغيب عنها الأعين، كأنهما جزء من الديكور الباهت. لا يتحركان، لا يتكلمان، فقط يجلسان بصمت مطبق، وكأنهما تمثالان من حجر.

لم يكن في ملامحهما شيء مميز، ولا في نظراتهما شيء يكسر هذا الجمود، لكن حضورهما الدائم كان يثير شيئًا غامضًا في المكان، يملأ الصف بشعور من الترقب. كانا مثل ظلين ثقيلين، أو كلوحة قديمة معلقة على جدار، اعتدنا رؤيتها لدرجة أننا لم نعد نلاحظ تفاصيلها. لا أحد يعرف عنهما شيئًا، ولا أحد يكترث، حتى اسميهما كانا مثل نقش باهت على خشب قديم، لم يحاول أحد قراءته.

لم يكن في ملامحهما شيء مميز، ولا في نظراتهما شيء يكسر هذا الجمود، لكن حضورهما الدائم كان يثير شيئًا غامضًا في المكان، يملأ الصف بشعور من الترقب. كانا مثل ظلين ثقيلين، أو كلوحة قديمة معلقة على جدار، اعتدنا رؤيتها لدرجة أننا لم نعد نلاحظ تفاصيلها. لا أحد يعرف عنهما شيئًا، ولا أحد يكترث، حتى اسميهما كانا مثل نقش باهت على خشب قديم، لم يحاول أحد قراءته.

كنت دائمًا أتمنى أن أسمع صوتهما ولو لمرة واحدة، لكنهما لم يتحدثا أبدًا. لا يفهمان شيئًا مما يقوله المعلم، ولا يحاول المعلم أن يشرح لهما شيء. بالنسبة للمعلم، كان وجودهما يكاد يكون غير محسوس إلا عندما يحين وقت العقاب.

يقفان هناك، كلٌّ منهما في دوره المقدر كقدر يوم القيامة، يتبادلان النظرات البائسة. المعلم يمسك العصا كأنها عصا موسى، جاهزة لتشق لهم طريقًا إلى الألم. واثنان من زملائهما، يا للمنظر! يمسكان به، يشدّانه كما لو أنهما حراس في سجن لا يرحم. ليس لأنهما يكرهان زميلهما المسكين، بل لأن هذا هو النظام، والنظام لا يُجادل! وبكل برود، العصا ترتفع ثم تهبط، بلا رحمة، بلا تردد، كأنما هذه الطقوس القاسية جزء من حفل يومي لا يحتمل التأجيل. وهكذا، كان العقاب يُنفّذ ببرود، لا غضب فيه ولا كراهية، بل كأنه عمل من أعمال الخير، كما لو أن المعلم يفكر في نفسه: 'عقاب اليوم، تربية الغد!.

أما هما، فكانا يبدوان وكأنهما معتادان على هذا العذاب اليومي. لا يبديان أي مقاومة، وكأن الضرب بالعصا لا يؤثر عليهما. فقط ملامح وجهيهما تتغير قليلاً، نوع من التألم المكبوت الذي لم يُسمع منه سوى صدى بعيد. حتى أنهما، بمرور الأيام، بدآ بارتداء بنطالين تحت بعضهما البعض لتخفيف حدة الألم.

كل يوم، كان المشهد يتكرر أمام أعين الجميع، كأنه جزء لا يتجزأ من نظام الحياة في تلك المدرسة الباردة. لا أحد يسأل عن الأسباب، لا أحد يتساءل عن الدوافع، وكأن عقول الجميع قد أُغلقت على فكرة واحدة: العقاب. لم يسأل أحد لماذا لا يقوم الشقيقان بواجباتهما؟ ما هو وضعهما؟ ما الذي يعتمل في ذهنيهما الصغيرين؟ وما حالتهما النفسية؟ هل هناك عائق يمنعهما من الفهم؟ لم يكن ثمة اهتمام بأي من هذه التساؤلات. المعلمون، والتلاميذ، وحتى الجدران، كانوا يبدون كأنهم مُبرمجون على نمط ثابت من التصرفات، تتجاهل كليًا التفاصيل الإنسانية التي كانت تصرخ من بين حنايا هذه الأجساد الصغيرة، التي تبحث في صمت عن بصيص من الرحمة.

كنت أراقب هذا المشهد بصمت، قلبي يثقل مع كل يوم يمضي، وعقلي لا يقوى على تقبل ما يحدث. كيف يمكن لزملائنا أن يتطوعوا، وبكل طواعية، للإمساك بالشقيقين، لإجبارهما على تلقي العقاب؟ كان يبدو الأمر وكأنه طقس يومي، مشهد مسرحي يتكرر بلا تغيير، حيث تتحول البراءة إلى أداة للطغيان، وحيث يصبح الألم اليومي جزءًا من نظام تعليمي لا يعترف بالإنسانية.

مشهد "بنت العمدة"

كنا نجلس في مقاعدنا، ننتظر درس اللغة العربية كما نفعل كل يوم، وسط روتين لا ينكسر، حيث كل شيء يسير وفق نظامه المعتاد: السبورة مكانها، الكتب متراصة أمامنا، وجوهنا تحدّق في الباب بانتظار دخول المعلم. ولكن، اليوم كان مختلفًا، إذ كان معلمنا غائبًا. لم نفكر كثيرًا في السبب, ربما مرض فجأة، أو قرر أن يأخذ يومًا إجازة، أو أنه ببساطة، اكتفى من التعامل معنا نحن، المشاغبين الصغار.

ثم فجأة، فتح الباب، ودخل علينا معلم جديد. كان طويل القامة، منحني الظهر قليلاً، وكأن أكتافه مثقلة بحمل غير مرئي. عينيه نصف مغلقتين، وكأنهما تعبتا من النظر إلى العالم، يجرُّ قدميه جراً، وكأنما أُجبر على القدوم إلى هنا، من مكان بعيد وغريب، لا يمتُّ لهذا الفصل بأي صلة. كانت حركته بطيئة، وعيناه تخترقاننا بنظرات تائهة، كمن ضاع وسط أفكاره، فأدركنا جميعًا أنه لم يكن في مكانه الصحيح، ولم يكن مُهيأً للوقوف أمامنا.

جلس المعلم على الكرسي بتثاقل، وكأن الأرض تسحبه، وكان يرتدي صندلاً قديمًا، ومنه كانت أصابع قدمه تخرج بطريقة مضحكة، تذكرت

حينها تلك العروض التي تُقدَّم في مسرح الدمى، حيث تبدو الأصابع كأنها شخصيات صغيرة تحاول الخروج من خلف الستار.

لم يكن هناك أي محاولة لإخفاء تعبه، فقد كان واضحًا أنه يجمع بين التدريس وتجارة الأغنام، ما أضاف طابعًا غريبًا للموقف.

تنحنح المعلم بشيء من العناء، ثم أطلق سعالًا حادًا، كما لو كان يحاول طرد كل التعب واليأس المتراكم في صدره. رفع رأسه قليلاً، وكأن الحديث نفسه عبء، وقال بصوت مبحوح، يكاد لا يُسمع:

- افتحوا الكتاب... على قصة بنت العمدة."

لم تكن القصة غريبة عن الأدب العربي، بل كانت قصة طويلة، من تلك القصص التي يفترض أن تثير فينا الحماس أو الفضول. لكن، مع كل جملة نطقها، بدا وكأنه يجرُّ الكلمات جرًّا، كما لو كانت أثقالًا تسحبه نحو القاع.

"أنت... اقرأ،" قال وهو يشير إلى طالب، ثم إلى الآخر، "والذي يليه... والذي يليه..."، وبهذا استمر الدرس، تتنقل القصة من فم إلى فم، كأنها رسالة بلا عنوان، تتوه في هذا الفصل، الذي بدا أشبه بقاعة انتظار باردة.

كل شيء حولي كان يكتسي برداء رتيب، ممل، يطغى عليه ثقل الوقت الذي لا يمضي. تلاشت كل الكلمات، وأصبح صوتهم مجرد ضجيج متقطع، ينساب مع حركة أصابع المعلم على الطاولة، يُطرق بأصابعه ببطء، كإيقاع لعنة قديمة. وهكذا، سارت القصة إلى نهايتها، لكن لم يترك

في نفسي من الدرس سوى اسمها "بنت العمدة"، وأمر آخر غريب: أصابع قدميه المكشوفة في حذائه البالي، التي ظلت عالقة في ذاكرتي. كان هناك شيء فيها، شيء عبثي، غير منطقي، يجعلني أتساءل: ما الذي تفعله أصابع قدميه هنا، في هذا الدرس الممل؟ لماذا لا أستطيع نسيانها؟ كأنها رمز لكل ما هو خاطئ وغير مفهوم.

كان مشهد أصابع قدميه، التي خرجت من الصندل البالي، أشبه بلقطة هزلية غير متوقعة في مسرحية درامية طويلة. وسط رتابة الدرس وصوت الطلاب المتعثر في القراءة، كانت تلك الأصابع تبدو كأنها تتمرد على الجو الكئيب. وبينما تنقل المعلم بين الطلاب ببروده المعتاد، لم أستطع منع نفسي من التحديق في تلك الأصابع، التي بدت فجأة وكأن لها حياة خاصة بها، تتمايل بخفة، وتتحرك بإيقاع غامض، كأنها مجموعة من الشخصيات المنسية في عالم خيالي صغير.

ثم بدأت أرى الأمر يتخذ منحىً أكثر غرابة. تخيّلت أن أصابعه تُشكل فرقة مسرحية سحرية، تحكي لنا قصصًا لا علاقة لها بما يحدث حولنا. الإصبع الكبير، برأسه السميك، بدا وكأنه العمدة ذاته، يقف بشموخ متسلط، يراقب كل شيء من علوّ لا يمكن الوصول إليه. أما الإصبع الصغير، الذي بالكاد يظهر من حافة الصندل، كان هو "بنت العمدة"، يقف هناك في خجل، يُراقب كل حركة بحذر، ينتظر دوره ليدخل إلى

المشهد. كانت بقية الأصابع تُمثل الشخصيات الثانوية، تتحرك بخفّة، وكأنها تؤدي حوارًا صامتًا، وتنسج أمام عيني مسرحية مصغرة تدور فوق تلك الأرضية الخشبية المتهالكة.

في لحظة، اختفى كل ما حولي, الفصل، الطلاب، المعلم، وحتى القصة التي تُروى. لم يبقَ سوى أصابع قدمه التي تحولت إلى ممثلين متقنين على مسرح مصغر، تتقمص أدوارها بإخلاص. شعرت بضحكة تكاد تخرج من صدري، ليس فقط لسخرية المشهد، بل لأني شعرت أني الوحيد في هذا الفصل الممل الذي يرى العرض السحري الذي تدور أحداثه أسفل الطاولة. وكأن العالم كله توقف، ولم يعد هناك سوى هذه المسرحية العبثية، التي تروي لنا قصة مختلفة تمامًا، مليئة بالحياة والحركة، رغم سكون صاحبها.

مشهد "الحمار"

كان ذلك درس التاريخ، وكنت أجلس في مكاني المعتاد، تلك البقعة التي اعتدتُ عليها، والتي تجعلني أشعر، بطريقة ما، بأمانٍ زائف. كنتُ أشعر بشيء من الحماس، لا أستطيع تفسيره. لكن في الوقت نفسه، كان هناك عراك صامت يدور في رأسي: "هل أعرف الإجابة حقًا؟ هل هي صحيحة؟ وإن لم تكن، ماذا سيحدث؟". كان مثل ملاكمة صغيرة بين عقلي ونفسي، وكل ضربة تركت أثرًا من الشك.

ثم، ولسبب لا أستطيع تفسيره، قررت رفع إصبعي. هكذا، دون سابق إنذار، كما لو أن عقلي ألقى بالمنشفة البيضاء في وجه الشك.

كان قرارًا مصيريًا، لا أدري كيف أصفه. كل ما أذكره هو أنني شعرت بشيء يتغير في الغرفة في اللحظة التي رفعت فيها إصبعي.

الجميع تجمدوا في أماكنهم، وكأن أحدهم أوقف العرض فجأة. حتى المعلم، ذاك الرجل العجيب الذي بدا وكأنه خرج من مسرحية كوميدية بالية، توقف عن الحركة. كان معلم التاريخ هذا، بشخصيته الغريبة، لا يُنسى أبدًا. حاجباه الكثيفان يبدوان كأنهما يشكلان لغزًا في حد ذاته،

يصعدان وينزلان مع كل جملة، بينما أنفه الضخم يلمع وكأن له رأيًا خاصًا في كل ما يجري.

عندما رفعت إصبعي، نظر إليّ بدهشة، ثم ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الساخرة التي تتبعه دائمًا. قال بصوت متساهل، لكنه يحمل في ثناياه ما يكفي من السخرية ليغرقني:

- أنت... تكلم، يا بطل."

شعرت بقوة غريبة تجتاحني، وبدأت بالكلام، لكن سرعان ما بدأت الكلمات تتناثر من فمي وكأنها قطرات ماء من زجاجة مثقوبة. لا ترتيب، لا معنى، لا شيء. مجرد فوضى لفظية تخرج وتتحول إلى هواء فارغ. صمت رهيب تَسَرَّب إلى المكان، وشعرت بالدماء تتجمد في عروقي. لحظة واحدة، قصيرة جدًا، لكنها بدت كأنها دهور من الخجل. ثم، فجأة، رأيت حاجبيه يقفزان إلى أعلى وجهه، وكأنهما علما بمصيبة عظمى.

حدق بي بنظرة كادت تخترقني، ثم بصوت يشبه زمجرة رعدية خافتة قال:

- اخفض يدك... يا حمار!"

الكلمة غاصت في قلبي الصغير وأخذت تدور. شعرت أنني انكمشت، تقلصت إلى نصف حجمي، وربما أقل. كل شيء اختفى، ما عدا

الضحكات التي بدأت تملأ المكان، ضحكات زملائي، تلك الأصوات المقيتة، راحت تتردد في أذني.

شعرت وكأن حاجبيه يتحولان إلى وحشين صغيرين، يقفزان على وجهه، يتحدان مع أنفه، وكأنهم يشكلون فريقًا ضدي. لماذا يبدو كأنهم يسخرون مني؟ من حاجبيه إلى أنفه، إلى كل تعابير وجهه الباردة.

خرجتُ من الفصل في ذلك اليوم وأنا أحمل في صدري كلمته: "يا حمار". لم أرفع إصبعي مرة أخرى طوال السنوات التالية. كلماته، تلك الكلمات، بقيت معي إلى الأبد. كصدى يلاحقني في كل مرة أفكر أنني قد أعرف شيئًا، قد أملك الإجابة.

مشهد "معلم المدنيات"

في الصف التاسع، كنتُ فتىً ممتلئًا بالثقة، أرى نفسي فوق أقراني، وأشعر أن كل إنجاز، مهما كان صغيرًا، هو دليل على عبقريتي الناشئة. كانت كلمات التشجيع تتردد من كل صوب، كأنها موسيقى تطرب مسامعي وتدفعني للأمام. لكن، في درس المدنيات، كان الأمر مختلفًا. كنتُ أشعر وكأنني أتعثر في أرض غريبة، قدماي تغوصان في طين غير مرئي. لم أفهم شيئًا مما يحدث من حولي، ولم أستطع تحديد السبب. هل كان العيب فيَّ؟ هل أصبحت فجأة غبيًا؟ أم أن المعلم هو الذي يعقد الأمور، أم هناك ما هو أعمق من ذلك بكثير؟

كان معلم المدنيات طويلاً، عابسًا، ذو نظرة ثاقبة تخترق أعماقك، كما لو كان يحاول أن يكشف خباياك المخفية. في البداية، شعرت بأنه يكنُّ لي نوعًا من التقدير، بل ربما الإعجاب. كانت كلماته الأولى لي تعكس نوعًا من الثقة، وأنا بدوري، تشبثتُ بهذه النظرة، معتقدًا أنني وجدتُ شخصًا يؤمن بقدراتي. لكنه، شيئًا فشيئًا، بدأ ينسحب من حياتي. ومع كل امتحان، كانت درجاتي تتدهور، وأخذت تلك النظرة التي كانت تنطوي على التشجيع تتحول إلى شيء أكثر قتامة، شيء يشبه الخيبة.

في أحد الأيام، بعد امتحان بدا لي كأنه نفق طويل لا نهاية له، وقف أمامي ممسكًا بورقة الامتحان. قلبي كان يدقّ بجنون، وعقلي كان يتخبط في أفكارٍ مشوشة. هل سأفشل مجددًا؟ هل سيسألني لماذا أخفقت؟ هل سأجد إجابة مقنعة؟ لكنه لم يقل شيئًا في البداية. اكتفى بأن طوى الورقة بعناية، وكأنما يطوي سرًا ثقيلًا أمام الجميع، ثم نظر إليّ نظرةً خالية من أي تفهم، مليئةً بشيء غامض يصعب تفسيره، وقال بصوت ها:

- "خيبت آمالي فيك."

لم أكن مستعدًا لمثل هذا الجرح، خاصة من شخصٍ اعتقدتُ أنه يراني كما يجب أن أُرى، شخص كنت أظنه يفهمني، لكن بدلًا من أن يستفسر عن أسبابي أو يحاول أن يعرف لماذا كنت أتعثر، قرر ببساطة أن يُطلق حكمه عليّ، وترك لي تلك الجملة المشؤومة: "خيبت آمالي فيك."

شعرت حينها وكأنني فقدت جزءًا من نفسي، جزءًا لم أكن أعلم أنه هش إلى هذا الحد. كأن ثقته المفقودة، هي جزء من ثقتي بنفسي، سُلبت مني إلى الأبد. كان الأمر أكبر من مجرد انخفاض في الدرجات، كان كسرًا في روحي، إشارة إلى أنني ربما لم أكن يومًا الشخص الذي كنت أظنه، أنني مجرد وهم ...

مشهد "الرهاب الاجتماعي"

كنتُ في الصف التاسع، وكان الشعر جزءًا مني. قصائد تحفظها ذاكرتي كأغنية قديمة، أرددها بصوت داخلي خافت، وكأنها تتنفس في روحي. في أحد الأيام، عرضوا عليّ أن أشارك في مسابقة شعرية، تُقام على المنصة أمام الجميع في احتفال مدرسي. كنت أبتسم حينها، وكأنني وجدتُ بابًا سريًا يؤدي إلى حلمي، بابًا لطالما أردتُ أن أعبره. فرصة لأُظهر للجميع ما أستطيع فعله. شعرت بالفخر، بأن هذه فرصتي لأثبت نفسي أمامهم جميعًا.

لكن عندما عدت إلى البيت، تغيّر كل شيء. الأفكار المظلمة تسللت إليّ بهدوء، كما يتسلل السارق إلى بيتك في الليل. "كيف ستفعل ذلك؟ كيف ستواجه الجميع؟ ماذا لو تجمدت الكلمات على شفتيك؟ ماذا لو ضحكوا؟" الأسئلة راحت تدور، تدور، كدوامة لا تنتهي. وكلما حاولتُ طردها، عادت أقوى. بدأ الخوف يلتهم كل سعادتي الصغيرة. لم أعد أرى المسابقة كفرصة، بل كوحش هائل يقف على حافة سريري، يحدق بي طوال الليل.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم. استلقيت على سريري، أحدق في السقف، وأتخيل نفسي هناك، على المنصة، وحدي أمام كل تلك العيون التي تنتظر سقوطًا. لم أكن أستطيع تحمل الفكرة. وفي الصباح، استيقظتُ مرهقًا، والقلق يثقل كاهلي كجبل من الرصاص. لم أكن مستعدًا لمواجهة الوحش. فقلت لأمي إنني مريض. لم أذهب إلى المدرسة. بقيتُ في المنزل، مختبئًا من نفسي، منهم، من كل شيء.

حينما جاء وقت الحفل، كنت أسمع دقات قلبي كطبول بعيدة. تخيلتُ المنصة الفارغة، اسمي ينادى، ولا أحد يرد. شعرت أنني لست فقط أخشى الجمهور، بل أخشى أن أواجه نفسي بعد ذلك. لقد هربت.

وفي اليوم التالي، عدت إلى المدرسة. رأيت نظراتهم عليّ. سألني أحدهم: "لماذا لم تأتِ؟ لقد نادوا اسمك، لكنك لم تكن هناك" . كانت كلماته مثل صفعة. لم تكن غاضبة، لم تكن ساخرة. فقط، كانت بسيطة، حقيقية. شعرتُ بعار شديد، شعرتُ أنني خذلتُ نفسي قبل أن أخذلهم. لم يكن العار في عدم مشاركتي. كان العار في هروبي.

تلك اللحظة، عندما وقفت وحدي بين الجدران المألوفة، أدركتُ شيئًا. "لن أهرب مرة أخرى". قلتها لنفسي بصمت. كان ذلك القرار الوحيد الذي خرج من كل تلك الفوضى. قرار بسيط، لكنه حقيقي.

مشهد "النجوم"

في مؤخرة الصف، كان "حسن" يجلس كطيف هادئ، كأنما حضوره خيط رفيع في هواءٍ مشبع بالضجيج. قوامه نحيل، أشبه بجذع شجرة يابسة لم يلتفت إليها أحد. قميصه الباهت يُظهر لونًا رماديًا، وكأنه امتصّ كل الألوان التي مرت عليه. البنطال قديم، لكنه نظيف بقدر ما تسمح له اليدان الصغيرتان اللتان تهتمان به. وعيناه... عيناه كانتا تنظران إلى العالم كغريبين، تراقبان بصمت من بعيد، وكأنهما تبحثان عن مكان لم ولن تجداه. كان جسده دائمًا يميل إلى الداخل، يتقوقع في مقعده، وكأنه يرغب أن يختفي تمامًا من الوجود، أو أن يندمج في الجدران، فلا يُزعج أحدًا بوجوده.

لم يكن "حسن" يشبه بقية زملائه، لم يكن كالأولاد الذين يركضون في الساحة، يضحكون، يقفزون، أو يتبادلون الضربات في حماسة عفوية. كان كالظلّ الذي يرافق كل ما يحدث، صامتًا، متأملًا، غائبًا حاضرًا في آنٍ واحد. لم يُسمع له صوت، لا في الساحة ولا في الفصل. إذا تحدث أحدهم، يلتفت بحذر، ثم يعود سريعًا إلى عالمه الصغير. كان يُشبه زهرة برية تنبت في ركن مهجور، تتفتح في الخفاء، وتذبل دون أن ينتبه إليها أحد.

مربية الصف، معلمة اللغة العربية، كانت تحبنا جميعًا، تبتسم لنا بحنوّ، وترانا كأننا براعم تنتظر أن تنمو. في أول يوم دراسي، علّقت لوحة كبيرة على الجدار، تحمل أسماءنا. كان اسم "حسن" هناك، في زاوية، مكتوبًا بخط جميل مثل الأسماء الأخرى. قالت لنا بفخر:

- كل من يجيب على سؤال، أو ينفذ واجبه، أو يحقق درجة جيدة في امتحان، سأضع أمام اسمه نجمة."

كانت النجوم لامعة، صغيرة، كل منها مثل شارة فخرية تعلن عن إنجاز جديد. سرعان ما تحوّلت اللوحة إلى ميدان تنافس. كنا نتسابق، نتشجع، نحلم بتلك النجوم الذهبية التي تلمع بجانب أسمائنا، تُخبر الجميع أننا أذكياء، أننا مهمون. كانت كل نجمة تضيء شيئًا في نفوسنا الصغيرة.

ومع مرور الأيام، بدأت أسماء الطلاب تُطوق بالنجوم. أمام اسم "علي" نجمتان، ثم ثلاث، ثم خمس. و"ليلى" جمعت نجومًا كأنها كواكب تحوم حول اسمها. وفيما كانت الأسماء تزدان وتتلألأ، كان اسم "حسن" يقف وحيدًا، عاريًا، فارغًا. لم تكن هناك نجمة واحدة تلمع بجانبه، وكأن ذلك الفراغ بجوار اسمه كان يعكس شيئًا أبعد من مجرد علامة غياب. كل يوم، كان "حسن" يجلس في مقعده الهادئ، ينظر إلى اللوحة نظرة حائرة، وكأنما ينتظر نجمة واحدة، فقط واحدة، قد تأتي لتمنحه بعضًا من الضوء.

أحيانًا، كنت أراقبه. عينيه تنظران إلى تلك النجوم كأنها أشياء سحرية لا يمكنه الوصول إليها. يُخفض نظره قليلًا، يُعيده إلى كتبه، يعبث بأصابعه النحيلة على أطراف الأوراق، ثم يُنهي يومه دون أن ينبس بكلمة.

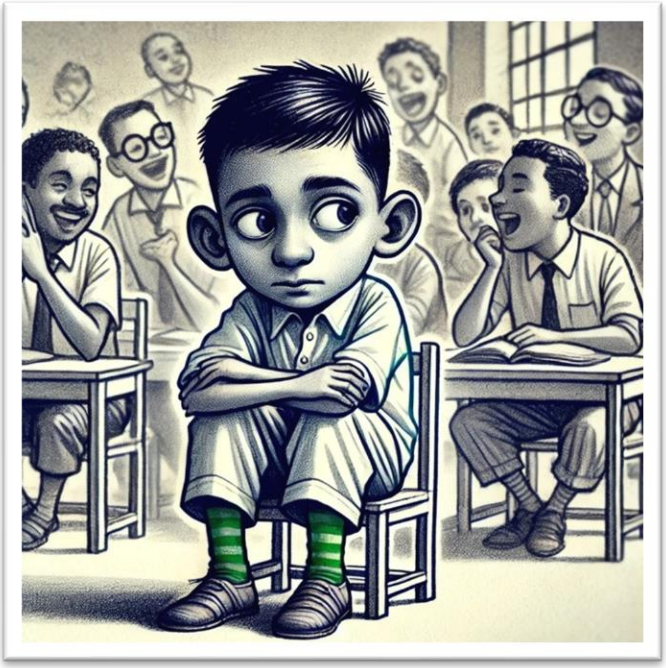

مشهد "أبو خميس"

كان يوماً استثنائياً في المدرسة، يوماً تتغير فيه الأجواء كما لو أن عاصفة حلّت على بلدة هادئة. حضر أبو "خميس" إلى المدرسة، وكأن حضوره أثقل الهواء في الممرات. بخطواته المتثاقلة، بدا وكأن الأرض ترتجف تحت وطأة جسده الضخم، كتلة لحم تسبقها كرش كبيرة تتمايل أمامه، كأنها قائد عسكري يتقدم جحافله. وجهه غُطيّ بذقن كثيفة تشبه عشبًا بريًا نما في كل الاتجاهات، وعيناه الجاحظتان لمعتا كجمرة متقدة وسط الرماد، تنبضان بغضب لا يخفى على أحد. كانت يداه الغليظتان، المكسوتان بالشعر الكثيف، كأنهما حجران ضخمان خرجا من كهف في جبل مهجور.

حينما دخل الصف، خيّم صمتٌ ثقيل على المكان. الطلاب انكمشوا في مقاعدهم، حتى معلم الحساب، الذي كانت عصاه القصيرة تلوح في الهواء في كل حين، بدا وكأنه تراجع خطوة صغيرة إلى الوراء. حاول المعلم، بوجه مشدود وابتسامة مترددة، أن يحافظ على ما تبقى من مظهره المهني، ثم قال:

- "أهلاً وسهلاً، أبو خميس."

فرد أبو "خميس"، بعينين تشتعلان قوة، وبصوت عميق كأنما يريد أن يملأ به المكان:

- "كيف حالك يا أستاذ؟ وكيف حال "خميس"؟"

حاول المعلم أن يحافظ على هدوئه، فنظر سريعًا نحو "خميس" الجالس في الخلف، ثم عاد بنظره إلى الأب، وكأنما يبحث في عينيه عن شيء لن يجده. قال بهدوء، وبنبرة مزيج من الحذر والمجاملة:

- "خميس... بحاجة إلى رعاية ومساعدة إضافية، يمكننا أن نعمل معًا لتحسين أدائه."

أبو "خميس" لم يكن هناك للاستماع، كان هناك ليؤكد وجوده، ليُشعر الجميع بأنه ليس كأيٍّ من آباء الآخرين. وقف مستعرضاً كرشه الضخم، مطلقاً نظراته الحادة باتجاه ابنه "خميس"، الذي كان يجلس في الخلف، منحنيًا كطائر صغير مبلل يحاول أن يختبئ من صقيع الشتاء, بكتفيه المنحنيين، وبعينيه اللتين التصقتا بالأرض، بدا وكأنما يتقلص تدريجيًا أمام عيني والده، يحاول جاهداً أن يتلاشى، أن يصبح أقل من مجرد ظل.

لكن أبو "خميس" لم يكن ليسمح له بالاختفاء. توجه بنظراته المشتعلة نحو معلم الحساب، ثم بصوتٍ خشن كزمجرة دبّ في وكر جبلي، قال:

- "إذا ما حل الوظيفة... كسر العصى عليه!"

كانت الكلمات تحمل معها وزناً ثقيلًا، لا مجال لتجاهله. كل الطالبات والطلاب كانوا يحدقون في المشهد، أيديهم الصغيرة تقبض على حافة مقاعدهم، وعيونهم تتراقص بين المعلم والوالد الغاضب. وحتى المعلم،

الذي كان يحاول بشتى الطرق الحفاظ على سيطرته، تراجع في صمته. ثم، وبسرعة، وجه نظره إلى "خميس"، وتلعثم بصوت خافت، لا يكاد يُسمع:

- "أمرك يا أبو "خميس"..."

لم يكن هناك ما يُقال أكثر من ذلك. كان الصمت وحده هو الذي سيطر على المكان. وقف "خميس"، في تلك اللحظة، كأنه لا ينتمي إلى العالم الذي حوله. جسده كان يتضاءل أكثر فأكثر، يطوي نفسه كما لو أنه يحاول أن يختفي في ثقب أسود خلف الطاولة. عينيه كانتا تحدقان في الأرض، وكأن البلاط تحت قدميه فجأة أصبح أكثر الأشياء إثارة في الكون.

مشهد "الغلطة"

كان الصف الثالث مكانًا يشع فيه الهدوء المزيّف، حيث جلس "مثنى" بين زملائه، كأنه واحد من ظلالٍ متشابهة. لم يكن يختلف عنهم كثيرًا، وجهه الصغير ينطق بالبراءة ذاتها، ونظرته الحالمة توحي بأنه لا يزال يعيش في عالم الطفولة، حيث الخيال والألعاب والقصص الملونة. لكن، كان هناك شيء مختلف في ذلك اليوم، شيء جعل الهواء أكثر ثِقَلًا، والأصوات أكثر خفوتًا. وقفت المعلمة، تلك المرأة العصبية ذات الحاجبين المقرونين، كأن حاجبيها هما ما يحكمان العالم من حولها، وفي يدها عصا خشبية طويلة. كانت العصا تتأرجح بخفة بين أصابعها السميكة. لم تكن عصا تعليم, كانت عصا حكم، تُصدر أحكامًا فورية، لا تقبل النقاش.

عشر كلمات فقط. هكذا قالت لهم، وهي توزع الأوراق في بداية الدرس. عشر كلمات صغيرة على الورق، لكنها في يدها تحولت إلى مصير ثقيل. وقفت أمامهم، عيناها الضيقتان تتلألآن ببريق غريب، ثم قالت، بصوت لم يخلُ من سخرية مبطنة:

- "كل غلطة... بعصا!"

بدت الجملة كأنها جملة عابرة، لكنها في واقع الأمر كانت حكمًا على كل طالب في الفصل. بدأت المعلمة تنادي الأسماء، و"سمير" كان الأول.

- "سمير... خمس غلطات... يعني خمس عصي... افتح يدك!"

كانت عصاها ترتفع وتنخفض بإيقاع ثابت. طراخ... طراخ... صوت الضربات كان يتردد في الغرفة كصدى في وادٍ ضيق، يهزّ القلوب الصغيرة. "سمير"، الذي كان قبل لحظات يلعب ويضحك، انكمش إلى طفل صغير، يداه ترتجفان، وعيناه تحدقان في مكان بعيد، كأنه يحاول الهروب من جسده. خمس ضربات متتالية، وكل ضربة كانت تسلبه جزءًا من ذاته، تحوله تدريجيًا إلى شيء لا يدركه أحد.

ثم جاء "محمد"، ثم "سعيد". كل واحد منهم كان يسير نحو المعلمة بخطوات ثقيلة، يفتح كفه الصغير، ثم يعود إلى مكانه وكأنه قد فقد شيئًا ثمينًا. كان "مثنى" يراقب كل شيء. يداه بدأت ترتجفان، عينيه الصغيرتين تمتلئان بالخوف، لكنه لم يقل شيئًا. لم يكن هناك ما يُقال. كانت العصا هي التي تتكلم، والمعلمة هي التي تحكم، والبقية ينتظرون دورهم في صمتٍ مشوب بالرهبة.

وحين نادت اسمه، شعر "مثنى" وكأن قلبه توقف. "مثنى!" قالت، "سبع أخطاء... تعال هنا!" كل خطوة خطاها نحوها كانت كطريق طويل في

صحراء قاحلة، حيث لا مأوى ولا أمل. وقف أمامها، يده الصغيرة امتدت بتردد، كأنما ترفض أن تصدق ما سيحدث. طراخ... طراخ...

سبع ضربات على يده، عضّ على شفتيه، حبَسَ أنفاسه، لم يصدر عنه صوت، لكن عيناه كانتا تصرخان بألم صامت. عاد إلى مكانه، يجلس بجسده، لكن روحه كانت تحوم في مكان بعيد، كأنما انفصلت عن الواقع.

وعندما نظر إلى الورقة، شعر وكأن الكون كله توقف للحظة. لم تكن ورقته. تلك كانت ورقة "معتز". كل الألم، كل الضربات التي تلقاها، كانت بلا سبب. رفع يده المرتجفة وقال:

- "هذه ليست ورقتي... إنها لمعتز."

نظرت إليه المعلمة بنظرة باردة، وكأن ما قاله لا يعني شيئًا على الإطلاق. ثم قالت بصوت خالٍ من التعاطف:

- "سأعوضك عندما أصل لورقتك."

وحين نادت اسمه مجددًا، شعر "مثنى" بأن العالم كله يتكرر من جديد. "مثنى، تعال مرة أخرى." تقدم نحوها بخطوات ثقيلة.

قالت المعلمة ببرود:

- "ليس هناك أخطاء."

كانت هذه الجملة الأخيرة، الخاتمة لكل ما حدث. لا تفسير، لا اعتراف بالخطأ، لا محاولة لفهم ما فعله هذا الموقف به. كل شيء انتهى ببساطة، كما لو أن ما حدث لم يكن يستحق حتى التوضيح.

- "آسفة، اجلس مكانك."

عاد إلى مكانه. نظر إلى اللوح الفارغ أمامه، وفي داخله صدى جملة واحدة تتردد:

- "اللعنة."

من هو المؤلف؟

الدكتور بديع عبد العزيز محمد القشاعلة هو مفكر وباحث فلسطيني من النقب، يمتلك تجربة علمية وثقافية غنية تمتد عبر مجالات متعدّدة، تتراوح بين التربية، وعلم النفس، والأدب. واصل تعليمه العالي في جامعة سانت بطرسبرغ العريقة في روسيا، حيث حصل على درجة الدكتوراه في علم النفس، لتصبح تلك المرحلة نقطة انطلاق لرحلة علمية وأدبية أثرت الساحة الفكرية والأدبية.

تميّز الدكتور القشاعلة بقدرته على المزج بين العلم والأدب، فكتب في موضوعات علمية عميقة تشمل علم النفس الإيجابي، ومشاكل التعلّم، وعنف المدارس، واضطرابات الانتباه، وطرق التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة. بأسلوبه المتفرّد، قدّم هذه الموضوعات بحسٍّ أدبي راقٍ، يجذب القارئ ويُحفّزه على التفكير والتأمل.

كما لم يغفل الجانب الإبداعي، إذ برز كشاعر وكاتب للأطفال، يمتلك قدرة على دمج المعرفة بالخيال، ليقدّم قصصًا ومقالات تحاكي عقل الطفل وتغرس فيه قيمًا تعليمية وإنسانية رفيعة. في كل كلمة، يسعى الدكتور القشاعلة لتقديم رؤى جديدة في التعليم والتربية، مؤمنًا بأن دور العلم لا يقتصر على اكتساب المعرفة فقط، بل على تحويلها إلى أدوات لبناء أجيال واعية ومجتمعات قادرة على الابتكار والنهوض.

Z E-Z